

صنعت خلاصاً

اسم المؤلف: القمص زكريا بطرس
اسم الناشر: www.fatherzakaria.com

صنعت خلاصاً في وسط الأرض كلها أيها المسيح إلها
عندما بسطت يديك الطاهرتين علي عود الصليب ...
(الأجبية: صلاة الساعة السادسة)

فليهتم الأسقف بكل أحد ليخلصه"
(الدسقولية)

مقدمة

"صنعت خلاصاً في وسط الأرض كلها أيها المسيح إلها عندما بسطت يديك الطاهرتين علي عود الصليب،
فلهذا كل الأمم تصرخ قائلة المجد لك يارب"
هذا ما نقوله في قطع الساعة السادسة (١٢ ظهراً) من كل يوم.

والكنيسة بهذا تريد أن تلفت نظر الجميع إلى الخلاص العظيم الذي صنعه الرب بدم نفسه كذبيحة كفارية
عوضاً عن البشرية جمعاء.

وحيث أن الخلاص في مفهوم كنيستنا يختلف عنه في مفاهيم الطوائف الأخرى، لهذا أردت أن أسلط الضوء
على هذا الموضوع الخطير من عدة زوايا بحسب عقيدتنا الأرثوذكسية المقدسة، وهدفنا الأسمى هو أن أقدم
رسالة روحية يستطيع أن ينتفع بها القارئ عندما يطبقها على حياته.

على أن القارئ سوف يجد المزيد من اللمسات الروحية مع العمق في البحث والدراسة واللاهوت المقارن في
كتب قداسة البابا المعظم الأنبا شنودة الثالث، (الخلاص في المفهوم الأرثوذكسي)، و(بدعة الخلاص في لحظة)،
فيجدر الرجوع إليهما.

ونسأل الرب أن يستخدم هذه الكتب لمجد اسمه القدوس بصلوات حضرة صاحب الغبطة والقداسة البابا
المعظم الأنبا شنودة الثالث أدامه الرب لنا سنين طويلة وأزمنة سالمة هادئة مديدة. آمين.

المؤلف

كنيسة الخلاص

"بشروا من يوم إلى يوم بخلاصه" (الأجبية)

* التذكارات الكنسية.
* كتب الصلوات الطقسية.
* الأسرار الإلهية.

تقديم

إن كنيستنا المجيدة الخالدة نستطيع أن نسميها بحق (كنيسة الخلاص) إذ تقدم لنا أن الخلاص هو :-

* غاية تجسد المسيح:

إذ يذكر بولس الرسول ذلك في قوله "إن المسيح يسوع جاء إلى العالم ليخلص الخطاة الذين أولهم أنا" (١٥: ١). وهذا هو عين ما قرره الملاك الذي ظهر ليوسف خطيب العذراء إذ طمأنه عنها وقال له "فستلد ابنا وتدعو اسمه يسوع. لأنه يخلص شعبه من خطاياهم. (مت ١: ٢١).

* غاية كرازة الرسل:

وكان الخلاص أيضاً هو محور كرازة الرسل حتى قيل عنهم "هؤلاء هم عبيد الله العلي الذين ينادون لكم بطريق الخلاص". (أع ١٦: ١٧).

وبولس الرسول يقول :- "غير طالب ما يوافق نفسي بل الكثيرين لكي يخلصوا" (١كو ١٠: ٣٣). ويقول أيضاً :- "صرت للكل كل شيء لأخلص كل حال قوماً" (١كو ٩: ٢٢).

* غاية إيمان الجميع:

إذ يقول بطرس الرسول "نائلين غاية إيمانكم خلاص النفوس" لهذا فقد كان الخلاص ولا زال هو :

* غاية رسالة الكنيسة:

فما رسالة الكنيسة إلا رسالة الخلاص. فالدسقولية تقول "فليهتم الأسقف بكل أحد ليخلصه". ولكي نوضح أن غاية رسالة الكنيسة هي الخلاص نورد بعض البراهين الصريحة على ذلك من واقع:

* التذكارات الكنسية.

* كتب الصلوات الطقسية.

* الأسرار الإلهية.

التذكارات الكنسية

- أولاً:- تذكارات سنوية.
- ثانياً:- تذكارات شهرية.
- ثالثاً:- تذكارات أسبوعية
- رابعاً:- تذكارات يومية.

لقد وضع الآباء في الكنيسة عدة تذكارات لإظهار عمل المسيح الخلاصي منها:

أولاً:- تذكارات سنوية

تحتفل الكنيسة في كل عام بتذكارات مناسبات معينة فيها أتم رب المجد عمل الخلاص وهي:-

١- أسبوع الآلام:

ففي هذا الأسبوع من كل عام نذكر ما قاساه رب المجد في الجسد خلال الأيام الأخيرة من حياته على الأرض جسدياً من أجل خلاص البشرية. وتتلى في الكنيسة أحداث كل يوم من هذه الأيام. وفي ختام الأسبوع أي يوم الجمعة العظيمة يبدأ الاحتفال بتذكارات يوم الصلب من الصباح حتى الغروب، وتقرأ أحداث كل ساعة من ساعات هذا اليوم التاريخي الذي فيه تم الخلاص بالفداء على عود الصليب.

فليتك يا أخي تعيش في هذا الأسبوع مع المسيح في آلامه لتعرفه وشركة آلامه متشبهاً بموته. فلا تحضر هذا التذكارات كما تقوم عادة بل ليكن حضورك بفهم ومشاركة روحية صادقة لتجدد فيك مباحج الخلاص.

٢- الأعياد:

وما الأعياد إلا احتفالات تذكارية يذكر فيها المؤمنون ما صنعه الرب من أجلهم. وأهم هذه الأعياد التي ترتبط بالخلاص:-

(أ) عيد الميلاد:

ففيه نذكر تجسد رب المجد من أجل خلاص العالم "ها أنا أبشركم بفرح عظيم يكون لجميع الشعب. إنه قد ولد لكم اليوم في مدينة داود مخلص هو المسيح الرب". (لو ٢: ١٠). فهل عندما تحتفل بذكرى المخلص، تستقبله في قلبك ليخلصك من خطاياك وأثامك.

(ب) عيد القيامة:

فيه نذكر قيامة الرب من بين الأموات منتصراً على شوكة الموت قاهراً غلبة الهاوية. وإذ نذكر هذا نأخذ من انتصاراته نصرة لنا على سلطان الظلمة فنسلك في حياة غالبية "كما أقيم المسيح من الأموات بمجد الأب هكذا نسلك نحن أيضاً في جدة الحياة" (رو ٦: ٤).

وفي قيامته من الموت نرى قوته فنرى أنه لم يمكث تحت سلطان الموت لأن ليس للموت سلطان عليه وإنما كان موته من أجلنا نحن الخطاه وصار لنا بقيامته التبرير: "أسلم لأجل خطايانا وأقيم لأجل تبريرنا". (رو ٤: ٢٥).

ثانياً :- تذكارات شهرية

وتحتفل الكنيسة في يوم ٢٩ من كل شهر من الشهور القبطية بتذكارات ثلاثة أعياد سيديّة هي :-
عيد البشارة ٢٩ برمهات.
عيد الميلاد ٢٩ كيهك.
عيد القيامة ٢٩ برمهات.
وقد وضعت لهذا اليوم قراءات خاصة تسير جميعها إلى الخلاص الذي صار للبشرية في مثل هذا اليوم.

واضع أمامك جزءاً مما يقال في هذا الاحتفال:

"في هذا اليوم العظيم الذي هو التاسع والعشرون من هذا الشهر .. كان الخلاص والفرح لجنس البشرية المحيية والميلاد البتولي والقيامة الشريفة التي بها كان الخلاص من يد العدو، والمعتقلون في الجحيم خلصوا، وأشرف عليهم مجد لاهوت المسيح ونور قيامته، وعادوا إلى الفردوس مرة أخرى .."
(طرح واطس. كتاب دورتي عيد الشعانين والصليب)

فتأمل يا أخي حرص الآباء على انتهاز كل فرصة لإظهار فرحهم بخلاص الرب، فلا يكتفون بالاحتفال بهذه الأعياد مرة كل عام، بل كما ترى يعيدون بذكرها كل شهر من شهور السنة.

فليتك يا أخي تكون لك غيرة الآباء وروح الأجداد الذين ما غابت عن أذهانهم هذه التذكارات.

ثالثاً :- تذكارات أسبوعية

علاوة على التذكارات السنوية والشهرية نرى الكنيسة مهتمة أيضاً بتذكارات الخلاص في كل أسبوع، فترتب أياماً لذكرى الصليب وأخرى لذكرى القيامة:-

١- تذكارات الصليب:

وضعت للمؤمنين أن يصوموا يومي الأربعاء والجمعة من كل أسبوع .. حتى نتذكر في يوم الأربعاء مشورة يهوذا الخائن واتفاقه مع اليهود على تسليم سيده مقابل ثلاثين من الفضة، وفي يوم الجمعة نذكر الخلاص بالصليب والفداء بالدم الذي أهرق "كفارة لخطايانا، ليس لخطايانا فقط بل لخطايا كل العالم أيضاً". (١ يو ٢: ٢).

فليتك يا عزيزي عندما تصوم هذين اليومين لا يكون صومك على سبيل عادة أو كواجب ثقيل.. بل تطلع إلى الخلاص الذي صار لك بالصليب .. فان كنت مستعبداً للخطية ولا زلت تحت سلطان الشهوات، اشترك مع المسيح في هذين اليومين في موته بصليب ذاك عن طريق الصوم إذ هو إماتة بالنية والمشينة، حتى تستطيع أن تقول: "مع المسيح صلبت فأحيا لا أنا بل المسيح يحيا في" (غل ٢: ٢٠).

٢- تذكارات القيامة:

"كانت قيامة الرب من بين الأموات يوم الأحد". (مت ٢٨: ١). لهذا فقد رتبت الكنيسة احتفالاً بهذه الذكرى إقامة القداسات الإلهية في صباح كل أحد من كل أسبوع. وفي صلوات القداس نذكر حياة السيد المسيح وعمله المبارك لأجل خلاص البشرية من احتمال الآلام وقبول للصليب ثم قيامة من الأموات وصعود إلى المجد .. حتى كما اشتركنا معه في آلامه نصل نحن أيضاً معه إلى قيامة الأموات لنكمل معه في المجد ..

فهل يا ترى عندما نحضر القداس نشترك فيه بحواسنا وبكل مشاعرنا .. أم أن حضورنا عادة ليس إلا، ووقوفنا بملل ووجودنا بلا فهم ...
ارفع بصرك يا أخي إلى يسوع معلقاً على الصليب ينزف دماً ثم ادخل معه إلى القبر .. ولا تمكث كثيراً في ظلامه المخيف .. بل تمتع بنور قيامته ومجد قدرته.

رابعاً :- تذكارات يومية

لم تكتف الكنيسة بالتذكارات السنوية والشهرية والأسبوعية فرتبت هذه التذكارات اليومية حتى لا يمر يوم دون أن يذكر المؤمن خلاص الرب.

فرتب آباء الكنيسة أن يصلى في اليوم سبع مرات كما قال داود النبي "سبع مرات في النهار سبحتك على أحكام عدلك" (مز ١١٩: ١٦٤). ولكل صلاة مناسبة معينة منها:

١- تذكارات آلام السيد:

فقد رتبت صلاة نصف الليل على ثلاث خدمات تذكاراتاً لصلوات السيد المسيح الثلاث في بستان جثمانى حيث كان يتصبب عرقه كقطرات دم. (لو ٢٢: ٤٤).

٢- تذكارات تعليقه على الصليب:

ففي صلاة الساعة السادسة (١٢ ظهراً) تذكارات لتعليق مخلصنا على الصليب. لهذا نجد مكتوباً في هذه الصلاة "يا من في اليوم السادس وفي الساعة السادسة سمرت على الصليب من أجل الخطية التي تجرأ عليها أبونا آدم في الفردوس، مزق صك خطايانا أيها المسيح إلهنا نجنا..

وفي ختامها نقول "نشكرك يا ملكنا ضابط الكل أبا ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح ونمجدك لأنك جعلت أوقات آلام ابنك الوحيد أوقات عزاء وصلاة .. وامح عنا صك خطايانا .. كما مزقته في هذه الساعة المقدسة بصليب ابنك الوحيد يسوع المسيح ربنا مخلص نفوسنا".

٣- تذكارات موته:

فقد رتبت صلاة الساعة التاسعة (٣ ظهراً) بمناسبة موت المخلص بالجسد ولهذا تقول الطلبة "أمت حواسنا الجسمانية أيها المسيح إلهنا ونجنا ..".

٤- تذكارات إنزاله عن الصليب:

بمناسبة إنزال المخلص عن الصليب رتبت الكنيسة صلاة الغروب وهي تقابل الساعة الحادية عشر من النهار (أي الخامسة بعد الظهر).

٥- تذكارات دفنه:

في الساعة الثانية عشر (٦ مساءً) وتسمى صلاة النوم، تذكر دفن المخلص في القبر ليدفن آثامنا، ولهذا تدور صلوات هذه الساعة حول طلب الخلاص من الدينونة الرهيبة فيقول المصلى: لو كان العمر ثابتاً وهذا العالم مؤبداً لكان لك يا نفس حجة واضحة، لكن إذا انكشفت أفعالك الرديئة وشروك القبيحة أمام الديان العادل فأني جواب تجيبي .. لكن اتخذ صورة العشار قارعاً صدري قائلاً "اللهم اغفر لي فأني خاطئ".

٦- تذكارات قيامته:

هذا هو موضوع صلاة باكر إذ يذكر المصلى قيامة المخلص في الصباح أول الأسبوع، ويطلب إشراقة نور القيامة لتضيئ له الحياة، ويذكر أنه بقيامة الرب قد أتم الخلاص فيقول "أيها النور الحقيقي الذي يضيئ لكل إنسان أت إلى العالم، بمحبتك للبشر، وكل الخليقة تهلك بمجيئك. خلصت أبانا آدم من الغواية، وعنتت أمنا حواء من طلاقات الموت وأعطيته روح البنوة ..".

فهل يا أخي حينما ترفع هذه الصلوات تعلق ذهنك بتذكارات مناسباتها لتذكر ذلك الخلاص الذي قدمه لك الرب بموته وقيامته؟

كتب الصلوات الطقسية

أولاً :- الأبصلمودية.
ثانياً :- الأجبية.
ثالثاً :- الخولاجي.

توضح لنا كتب الصلوات والقراءات التي وضعها الآباء في الكنيسة مدى اهتمامهم بإبراز رسالة الخلاص، وفيها الكثير من النصوص الصريحة. ولكني أقتصر على اقتطاف عدة عبارات لتكون موضع تأمل ودراية بكنوز البيعة الثمينة من الكتب الآتية:

أولاً :- الأبصلمودية

وهو كتاب التسبحة أي الصلوات التي تسبق رفع بخور عشية وباكراً، وهو ملئ بمعاني الخلاص وإيضاحاته، ولكني أقتصر على نص واحد منها:- (إذا ما أحببنا اسم الخلاص الذي لربنا يسوع المسيح وصنعنا الرحمة بعضنا من بعض نكمل الناموس .. فان كنا معوزين من أموال هذا العالم، وليس لنا شيء نعطيهِ صدقة، فلنا الجوهرة اللؤلؤة الكثيرة الثمن، الاسم الحلو المملوء مجداً الذي لربنا يسوع المسيح.

إذا لازمناه في إنساننا الداخلي فهو يجعلنا أغنياء حتى نعطي الآخرين ليس أموال هذا العالم الزائل التي نطلبها بل خلاص نفوسنا بتلاوة إسمه القدوس).
كم أحب أن أطلق على هذه القطعة اسم (أنشودة الخلاص) إذ توضح لنا غاية الناموس ألا وهي الخلاص، ففي هذا العرض البديع نرى شقي الخلاص.

تمتلك الشخصي به:
إذا أحببنا اسم الخلاص..
إذا لازمناه في إنساننا الداخلي..

تقديمه للآخرين:
صنعنا رحمة .. نعطي الآخرين .. خلاص نفوسنا. أخي الحبيب إن الآباء بهذا الكلام يناشدونك أن تلتزم الخلاص وتعمل على تقديمه للآخرين ..

ثانياً :- الأجبية

وهو كتاب السبع صلوات التي تصلى في الكنيسة وأيضاً في الصلوات الانفرادية للمؤمن. وهذا الكتاب غني هو الآخر بما فيه من نصوص عن الخلاص، ولكني أقتصر على ما يأتي:-

١- صلاة الساعة السادسة:

(صنعت خلاصاً في وسط الأرض كلها أيها المسيح إلهنا عندما بسطت يديك الطاهرتين على عود الصليب فلهذا كل الأمم تصرخ قائلة المجد لك يارب) يتغنى المرنم بالخلاص الذي صنعه رب المجد على الصليب وقدمه لجميع الأمم التي من أجل هذا تصرخ ممجدة الرب.

٢- صلاة الساعة التاسعة:

"بشروا من يوم إلى يوم بخلاصه.." (مز ٩٥). حرص الآباء على وضع هذا المزمور في مقدمة هذه الصلاة ومنه دعوة صريحة للتبشير بخلاص الرب من يوم إلى يوم .. فهل نتفد ما تصليه؟ أم أن صلواتنا مجرد ترديد ألفاظ بلا استعداد للعمل بما يريده الرب منا .. إن الوصية صريحة لنا أن نبشر من يوم إلى يوم بخلاصه..

٣- صلاة نصف الليل:

(بعين متحننة يارب انظر إلى ضعفى فعما قليل تقنى حياتي. وبأعمالي ليس لي خلاص فلهذا أسأل بعين رحيمة يارب انظر إلى ضعفى وذلي ومسكنتي).

ما أجمل هذه الطلبة التي فيها يقر المصلى بضعفه وذله ومسكنته وعدم اعتماده على أعماله في الخلاص بل على رحمة المخلص وتحننه.

ثالثاً :- الخولاجي

وهو كتاب صلوات القداست التي وضعها القديس باسيليوس والقديس إغريغوريوس والقديس كيرلس.

وهذا الكتاب أيضاً لا يقل في غناه بعبارات الخلاص وإظهاره عن بقية كتب البيعة .. وسنقتصر على ذكر ما يأتي :-

١- القداست الباسيلي:

(خلصت حقاً)

أي لقد نلت الخلاص حقاً .. وتكرر هذه العبارة ثلاث مرات في القداست. مرة عقب صلاة الشكر بعد تقديم الحمل، ومرة عقب إنجيل القداست، ومرة ثالثة عقب تحاليل ما قبل الاعتراف الأخير.

٢- القداست الإغريغوري:

(أنت يا سيدي حولت لي العقوبة خلاصاً .. أنت الذي خدمت لي الخلاص لما خالفت ناموسك).

ما أجمل هذا التعبير: يسوع حول لنا العقوبة خلاصاً إذ تحمل هو نفسه عقوبة الخطية نيابة عنا .. يسوع نفسه خدم لنا الخلاص، لم يأت من ملاكا ولا رئيس ملائكة ولا رئيس آباء ولا نبياً على خلاصاً ..

٣- القداست الكيرلسي:

(الساقطين أقمهم والقيام ثبتهم، الضالين ردهم .. أدخلهم جميعاً إلى طريق خلاصك).

لقد كانت الغاية واضحة أمام القديس مار مرقس الرسول واضع هذا القداست المسمى باسم مدونه القديس كيرلس.. فغاية الخلاص هي محور صلاته، فيطلب من أجل الجميع أن يدخلهم الله إلى طريق الخلاص الذي علمنا إياه كما سجل القديس باسيليوس في قداسته:

(تجسد وتأنس وعلمنا طرق الخلاص)

فهل دخلت يا أخي المبارك في طريق الخلاص، وهل تسير فيه؟
أم أنك تقف من بعيد وتكتفي بمجرد التطلع إلى السائرين فيه؟

الأسرار الإلهية

- أولاً :- سر المعمودية
- ثانياً :- سر المسحة
- ثالثاً :- سر التوبة
- رابعاً :- سر الشركة

ومن بين ما يوضح أن غاية الكنيسة هي الخلاص هو ما اشتملت عليه من أسرار مقدسة تعتبر مركز الدائرة فيه. وإن كانت جملة الأسرار الكنسية سبعة، إلا أنه يوجد أربعة أسرار منها نستطيع أن نسميها أسراراً خلاصية وهي:

سر العماد، وسر المسحة المقدسة، وسر التوبة، وسر الشركة. أما بقية الأسرار فهي أسرار اختيارية أي ليست إلزامية لكل مؤمن وهي: سر الكهنوت، وسر الزيجة، وسر مسحة المرضى. فليس بالضرورة لكل مؤمن أن يتم هذه الأسرار فيكون كاهناً أو متزوجاً وإن كان كل إنسان محتاج لهذه الأسرار أيضاً فلا يمكن أن يتم أي سر إلا بواسطة الكهنة الذين يقامون بسر الكهنوت ...

ولنستعرض الآن الأسرار الخلاصية التي نعتبرها شيكات النعمة واهبة الخلاص من رصيد دم المسيح المسفوك على عود الصليب.

أولاً :- سر المعمودية:

"من آمن واعتمد خلص" (مر ١٦: ١٦).

وفي كتاب المعمودية نجد ما يأتي:-

(السيد المسيح له المجد قال من فمه الطاهر: "يجب أن نكمل كل بر" وقال أيضاً لتلاميذه الأطهار: "امضوا إلى كل الأمم وبشروهم بالإنجيل وعمدوهم باسم الأب والابن والروح القدس". وكل من آمن واعتمد خلص. فصار هذا العماد متتابعاً من السيد المسيح وخلفائه سادتت الرسل الأطهار بالمعمودية المقدسة لأن بها غفران الخطايا والدخول إلى السموات).

هذا هو سر المعمودية الذي به ننال خلاصاً بغفران خطايانا في استحقاقات دم المسيح المسفوك على خشبة الصليب.

ثانياً :- سر المسحة

"وأما أنتم فلکم مسحة من القديس وتعلمون كل شيء .. وأما أنتم فالمسحة التي أخذتموها منه ثابتة فيكم ولا حاجة بكم إلى أن يعلمكم أحد بل كما تعلمكم هذه المسحة عينها" (١يو ٢٠: ٢٧، ٢٠). وبهذا السر المقدس ينال المؤمن الروح القدس. "ولما وضع بولس يديه عليهم حل الروح القدس عليهم" (أع ١٩: ٦). ودور الروح القدس في الخلاص في غاية الأهمية إذ أنه يقوم بعملتي:-

١ - التحرير:

إذ أنه هو القوة المحررة من سلطان الخطية كما يقول بولس الرسول: "ناموس روح الحياة في المسيح يسوع قد أعققتني من ناموس الخطية والموت" (رو ٨: ٢).

٢ - التثبيت:

إذ يثبت المؤمن في شخص المخلص ربنا يسوع المسيح فيثبت في الخلاص "ولكن الذي يثبتنا معكم في المسيح وقد مسحنا هو الله. الذي ختمنا أيضاً وأعطى عربون الروح في قلوبنا" (٢كو ١: ٢٢). وهذا هو عين ما توضحه الكنيسة في الصلوات الخاصة بهذا السر كما ترى مما يأتي:-

"أنعم بالروح القدس عند نضحة الميرون المقدس ليكون خاتماً محبباً وثباتاً لعبيدك بابنك الوحيد يسوع المسيح ربنا.." (كتاب الصلوات الطقسية).
أرأيت إذن يا أخي المبارك تضامن هذين السرين في عملية الخلاص!.

فبالمعمودية ننال خلاصاً من قصاص الخطية وعقوبتها.
وبالمسحة ننال خلاصاً من سلطان الخطية ومحبتنا لها.

وذلك عن طريق ثباتنا في الروح القدس الذي حل فينا.
عزيزي إن كان الأمر بهذين السرين كما رأيت الآن نراك يا من قبلتهما مغلوباً من شهواتك مستعبداً لأدناسك؟
أليس لأنك لم تفهم فاعلية النعمة التي أعطيت لك؟

أتريد أن تخضع لفاعلية المسحة المقدسة حتى يعمل فيك روح هذه المسحة ليحررك من قيود الخطية وأغلالها؟!
"هو ذا الآن وقت مقبول، إخضع لسلطان الروح وأصغ لتبكيكاته وأطع توجيهاته، سلم له القيادة فيحررك بالتمام.
وأضرم موهبة الله التي فيك" (٢تى ١: ٦).

ثالثاً :- سر التوبة:

"توبوا وارجعوا لتمحي خطاياكم لكي تأتي أوقات الفرح من وجه الرب". (أع ١٩: ١).
وفي صلوات هذا السر وضعت الكنيسة هذا القول:
"اللهم أنعم علينا بغفران خطايانا باركنا، طهرنا حاللنا.."

فان فاعلية سر التوبة هو كفاعلية سر المعمودية حتى دعاها مجمع قرطاجنة "التوبة المعمودية ثابتة". وفي ذلك قال القديس أوغسطينوس: "إن الخطية إذا فعلها موعوظ تغسل بالمعمودية وإذا فعلها معمد تترك بالتوبة".

رابعاً :- سر الشركة

"من يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت في وأنا فيه" (يو ٦: ٥٦). وفي صلوات هذا السر وضعت الكنيسة هذا القول: "أنت يارب علمتنا هذا السر العظيم الذي للخلاص" (صلاة بعد الاستعداد).
ونستطيع أن نركز فاعلية هذا السر في الخلاص فيما يلي:-

١ - المغفرة:

"لأن هذا هو دمي للعهد الجديد الذي يسفك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا". (مت ٢٦: ٢٨).

٢ - التثبيت:

"من يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت في وأنا فيه" (يو ٦: ٥٦).
وبثباتنا في شخص المخلص يحررنا من سلطان الخطية ومحبتها "إن حرركم الابن فبالحقيقة تكونون أحراراً" (يو ٨: ٣٦).

ولعلك من هذا تستطيع أن ترى أن فاعلية هذا السر تقابل فاعلية سر المسحة الذي به نثبت أيضاً في المسيح:
"ولكن الذي يثبتنا معكم في المسيح وقد مسحنا هو الله" (٢كو ١: ٢١).

ولقد وفق القديس باسيليوس في جمعه بين الفكرتين في عبارة واحدة وضمنها قداسة الإلهي:
"إذ طهرتنا كلنا تولفنا بك من جهة تناولنا من أسرارك الإلهية. لكي نكون مملوئين من روحك القدوس وثابتين في
إيمانك المستقيم بالمسيح يسوع ربنا". (صلاة خضوع للآب سرًا).

تضامن السرين:

وكما رأيت يا أخي تضامن سرى المعمودية والمسحة في خلاص الموعوظ هكذا أيضاً ترى تضامن سرى التوبة
والشركة لخلاص المؤمن على النحو التالي:
فبالتوبة.. ننال خلاصاً من قصاص الخطية الفعلية وعقوبتها.
وبالشركة.. ننال خلاصاً من سلطان الخطية ومحبتها.
وذلك عن طريق ثباتنا في شخص الرب يسوع المخلص بالروح القدس الذي يملأنا. وهو الذي يحررنا "إن
حرركم الابن فبالحقيقة تكونون أحراراً" (يو ٨: ٣٤).
هذا هو عمل هذين السرين في حياتك.. ولكن لماذا أنت لا تقدر ذلك؟ لماذا تمارس هذه الأسرار شكلياً دون
التمتع بقوتها؟.. أخشى يا عزيزي أن ينطبق عليك القول:
"لك صورة التقوى ولكنك تتكر قوتها" (٢تى ٣: ٥).
فاقدم على هذه الأسرار بمفهوم جديد واضعاً نصب عينيك غاية واضحة وهي (الخلاص) لا مجرد إتمام مراسيم
طقسية..

الخلاصة

- * الخلاص هو غاية:
- تجسد المسيح، كرازة الرسل، إيمان الجميع.
- * وهو غاية رسالة الكنيسة تبرز في:
- التذكارات الكنسية:
- السنوية: أسبوع الآلام - الأعياد.
- الشهرية: احتفال يوم ٢٩ من كل شهر.
- الأسبوعية: صومي الأربعاء والجمعة - قداس الأحد.
- اليومية: مناسبات صلوات سواعي النهار.
- كتب الصلوات الطقسية:
- الأبصلمودية: إذا أحببنا اسم الخلاص..نعطى..الخلاص.
- الأجبية: بشروا من يوم إلى يوم بخلاصة.
- الخولا جي: خلصت حقاً.
- الأسرار الإلهية:
- المعمودية: من آمن واعتمد خلص.
- المسحة: ناموس روح الحياة.. أعتقني من ناموس الخطية.
- التوبة: توبوا وارجعوا لتحمل خطاياكم.
- الشركة: علمتنا هذا السر العظيم الذي للخلاص.

جواهر الخلاص

"صنع الرب خلاصاً عظيماً"
(٢صم ٢٣: ١٢).

- الفصل الأول : مفهوم الخلاص.
- الفصل الثاني : دوافع الخلاص.
- الفصل الثالث : طرق الخلاص.
- الفصل الرابع : عمل الخلاص.

الفصل الأول

مفهوم الخلاص

أولاً :- إنقاذ من عقوبة الخطية.
ثانياً :- إنقاذ من سلطان الخطية.
ثالثاً :- إنقاذ من جسد الخطية.

في بساطة نستطيع أن نقول إن الخلاص معناه (الإنقاذ) فمثلاً: (الخلاص من الغرق) هو الإنقاذ من الغرق. (الخلاص من يد العدو) هو الإنقاذ من يده.. وبهذا المعنى نفهم خلاص المسيح لنا أنه:

أولاً :- إنقاذ من عقوبة الخطية:

عندما ترتكب إحدى خطايا تتبكت وتتألم لأنك ترى شدة غضب الله، وتحس بأنك تستحق الموت لأنك فعلت الشر في عيني الرب إلهك..
هذا شعور سليم لأن "أجرة الخطية هي الموت" (رو ٦: ٢٣).

فان كان هذا شعورك فأنت تستطيع أن تفهم معنى الخلاص، فالخلاص هو إنقاذك من قصاص الخطية ودينونتها، أو بمعنى أوضح إنقاذ من عقدة الشعور بالذنب. "لأنه لا شيء من الدينونة الآن على الذين هم في المسيح يسوع السالكين ليس حسب الجسد بل حسب الروح". (رو ٨: ١).

فيسوع بموته على الصليب قد وفى قصاص الخطية، قد احتمل في جسده عقوبة خطاياك ليطلقك أنت بريئاً. "لأن الرب وضع عليه إثم جميعنا". (اش ٥٣: ٦). "والمسيح أيضاً تألم مرة واحدة من أجل الخطايا. البار من أجل الأثمة لكي يقربنا إلى الله". (١ يو ٣: ١٨). ولهذا فان "دم يسوع المسيح ابنه يظهر من كل خطية". (١ يو ١: ٧).

فان كنت حزينا على خطاياك مرتجفاً من العذاب الذي تستحقه ارفع نظرك إلى المعلق على خشية الصليب نيابة عنك، فتحمل العذاب عوضاً عنك، ومات هو بدلاً منك، فترتاح نفسك ويصير لك سلام مع الله. "متبررين مجاناً بنعمته بالفداء الذي بيسوع المسيح .. بالإيمان بدمه" (رو ٣: ٢٥). "إذ قد تبررنا ولا تنسى أنك علي هذا الإيمان قد قبلت المعمودية بالإيمان وصرت عضواً في الكنيسة لنا سلام مع الله برينا يسوع المسيح" (رو ٥: ١).

هل تثق وتؤمن في كفاية دم المسيح المسفوك عنك ليوفى دينك؟ أم أنك تظل حزينا مرتجفاً من العقاب غير واثق في تبرير الرب لك بدمه. "ونحن متبررين الآن بدمه نخلص به من الغضب". (رو ٥: ٩).
إنك إن لم تثق في ذلك فانك تنقص من قيمة دم المسيح وعمله الكفاري على الصليب !!

ولكن هل معنى هذا أنك تتماذى في خطاياك وشرورك على حساب دم المسيح؟ كلا.. أريدك أن تلاحظ جيداً أن الكتاب عندما قال: "إذاً لا شئ من الدينونة الآن على الذين هم في المسيح يسوع" أكمل قائلاً: "السالكين ليس حسب الجسد بل حسب الروح" (رو ٨: ١).

والسيد المسيح نفسه قال لمريض بيت حسدا بعد أن شفاه من مرض الجسد ومرض الخطية "ها أنت قد برئت فلا تخطئ أيضاً لئلا يكون لك أشر". (يو ٥: ١٤). وبولس الرسول يؤكد هذا القول بقوله: "فماذا نقول. أنبقى في الخطية لكي تكثر النعمة. حاشا. نحن الذين متنا عن الخطية كيف نعيش بعد فيها" (رو ٦: ٢).

أرجو أن هذا الأمر لا يحيرك كثيراً فإن المقصود بالسلوك حسب الروح أن تكون اتجاهاتك ورغبات قلبك هي أن تعيش مع الله وتسلك في الطريق المؤدى للحياة الأبدية، فإن تعثرت فيه وسقطت عن ضعف، يقيمك الرب ويغفر خطاياك ولا يحسب عليك خطية. وفي هذا قال يوحنا الحبيب "يا أولادي أكتب إليكم هذا لكي لا تخطئوا وإن أخطأ أحد فلنا شفيع عند الأب يسوع المسيح البار وهو كفارة لخطايانا.. ليس لخطايانا فقط بل الخطايا كل العالم أيضاً" (١ يو ٢: ٢). وقال أيضاً: "إن اعترفنا بخطايانا فهو أمين وعادل حتى يغفر لنا خطايانا ويطهرنا من كل إثم" (١ يو ١: ٩).

وأما الحالة التي يحذر منها الكتاب هي أنك تعيش في حياة الإثم ولكن لإسكات صوت ضميرك عن تأنيبك وصوت الروح القدس عن تبكيتك تقول أن الدم يطهر من كل خطية!!

وفي هذا قال الرسول "إن قلنا أن لنا شركة معه وسلطنا في الظلمة نكذب ولسنا نعمل الحق ولكن إن سلطنا في النور كما هو في النور فلنا شركة بعضنا مع بعض ودم يسوع المسيح يطهرنا من كل خطية". (١ يو ١: ٦). فإن لم تكن لك توبة صادقة لن تغفر خطيتك. "إن لم تتوبوا فجميعكم كذلك تهلكون.. (لو ١٢: ٣). "فتوبوا وارجعوا لتمحي خطاياكم". (أع ٣: ١٩).

فعلى هذا الإيمان تسرى فاعلية سر المعمودية وسر التوبة في الخلاص من قصاص الخطية.

ثانياً :- إنقاذ من سلطان الخطية:

هذا هو المعنى الثاني للخلاص أو بتعبير أدق الجانب الثاني للخلاص. فالإنقاذ من سلطان الخطية ومحبتها لا يقل أهمية وقيمة عن الإنقاذ من قصاص الخطية وعقوبتها.

فلو كان عمل المسيح قاصراً فقط على الإنقاذ من قصاص الخطية فحسب دون التحرير من سلطانها لكان عملاً مبتوراً وحاشا أن يكون عمل الله ناقصاً.

فما قيمة تسديد ديون أحد السكيرين دون تحريره من سلطان الخمر، ربما كان هذا العمل مدعاة له أن يتمادى في سكره وديونه متكلاً على من يسددها له!! إن هذا العمل يضره أكثر مما يفيده، لهذا وجب على من يسدد الديون أن يعمل على التحرير من سلطان الكيف والخطية. وشكراً لله بيسوع المسيح ربنا الذي قيل عنه "فمن ثم يقدر أن يخلص أيضاً إلى التمام الذين يتقدمون به إلى الله.. إذ هو حي في كل حين ليشفع فيهم". (عب ٢: ٢٥).

فيسوع لم يسدد الدين فحسب بل قد وهبنا روحه الذي يحررنا من سلطان الخطية ومحبتها والعبودية لها.

هو ذا بولس الرسول يتكلم عن خبرته في هذا الأمر، فبعد أن كان يصرخ متأوهاً. "أرى ناموساً آخر في أعضائي يحارب ناموس ذهني ويسبيني إلى ناموس الخطية الكائن في أعضائي .. ويحيي أنا الإنسان الشقي من ينقذني من جسد هذا الموت". (رو ٧: ٢٤، ٢٣). نراه بعد ما حصل على اختبار التحرر من سلطان الخطية يقول "إن ناموس روح الحياة في المسيح قد أعتقني من ناموس الخطية والموت". (رو ٨: ٢).

ويلاحظ أن هذه النعمة تالية لنعمة الخلاص من دينونة الخطية إذ في الآية السابقة مباشرة لهذه الآية يقول الرسول "إذا لا شيء من الدينونة الآن على الذين هم في المسيح يسوع السالكين ليس حسب الجسد بل حسب الروح". (رو ٨: ١).

فلا تكتفي يا مبارك بنعمة الخلاص من قصاص الخطية وعقوبتها بل اطلب بإيمان لتختبر الخلاص من سلطان الخطية بقوة روح المسيح وجاهد جهاد الإيمان الحسن وامسك بالحياة الأبدية.

إن السر في هزيمتك المتوالية يا أخي هو أنك لم تعتمد على الروح القدس ليحررك من عبودية الخطية.

وتسرى فينا قوة المسيح في سرى الميرون والتناول، فعندما نثبت فيه نستطيع أن نجاهد جهاد الإيمان الحسن. (١٢: ٦).

ثالثاً :- إنقاذ من جسد الخطية:

هذا هو النوع الثالث من مفاهيم الخلاص. فالمؤمن يظل طيلة أيام حياته في حرب طاحنة بينه وبين رغبات جسد الخطية أو الإنسان العتيق الساكن فيه والذي يحاول إبليس أن يستثيره بمغريات العالم وشهوته ليفقده الخلاص والنعيم. ولا يتوقع المؤمن راحة طالما هو في الجسد. لذلك فهو ينتظر مجيء الرب يسوع من السماء ليخلصه من جسد الخطية (الإنسان العتيق أو الطبيعة الفاسدة). لهذا فكمال خلاصنا هو بتغيير أجسادنا الترابية إلى أجسام روحانية "يزرع جسماً حيوانياً ويقام جسماً روحانياً" يوجد جسم حيواني ويوجد جسم روحاني. لكن ليس الروحاني أولاً بل الحيواني وبعد ذلك الروحاني .. وكما لبسنا صورة الترابي سنلبس أيضاً صورة السماوي" (١كو ١٥: ٤٤).

وأيضاً يقول معلمنا بولس الرسول "فان سيرتنا نحن هي في السموات التي منها ننتظر مخلصنا هو الرب يسوع المسيح الذي سيغير شكل جسد تواضعنا ليكون على صورة جسد مجده". (فى ٣: ٢١، ٢٠).

وهذا النوع الأخير من الخلاص نناله بظهور شخص ربنا المبارك يسوع المسيح. "أيها الأحياء الآن نحن أولاد الله ولم يظهر بعد ماذا سنكون ولكن نعلم أنه إذا أظهر نكون مثله لأننا سنراه كما هو" (يو ٣: ٢). فكمال خلاصنا يا أخي هو بظهور ربنا في مجده فيقوم الأموات ويلبسون الجسد الروحاني والأحياء الباقون على الأرض يتغيرون من الصورة الترابية إلى الصورة الروحانية في لحظة.. في طرفة عين. "هو ذا سر أقوله لكم لا نرقد كلنا

ولكننا كلنا نتغير في لحظة في طرفة عين عند البوق الأخير .. فانه سيبوق فيقام الأموات عدمي فساد ونحن نتغير". (١كو ١٥: ٥٢). "أمين تعال أيها الرب يسوع". (رو ٢٢: ٢٠).

وقد وضع القديس أوغسطينوس هذا المفهوم بكل جلاء إذ قال: "إذا سألتني أحد عما إذا كنا قد خلصنا بالمعمودية؟ فأنا لا أستطيع أن أنكر ذلك إذ يقول الرسول "خلصنا بغسل الميلاد الثاني وتجديد الروح القدس " (تى ٣: ٥). ولكن إن سألتني عما إذا كنا قد خلصنا تماماً من كل ناحية بواسطة المعمودية؟ أجيب بأن الأمر ليس كذلك. فقد قال نفس الرسول "لأننا بالرجاء خلصنا ولكن الرجاء المنظور ليس رجاء لأن ما ينظره أحد كيف يرجوه أيضاً. ولكن إن كنا نرجو ما لسننا ننظره فإننا نتوقعه بالصبر". (رو ٨: ٢٤).

ثم يعود القديس أوغسطينوس موضحاً فيقول: (لأن المعمودية تغسل كل الخطايا عامة.. ولكنها لا تنزع الضعف البشري الذي يظل يقاومه المتجدد في جهاده الحسن). فهو يوضح هنا الجانب الأول والثاني من "الخلاص من قصاص الخطية وسلطان الخطية".

وفي الفقرة الآتية يوضح أيضاً الجانب الثالث من الخلاص فيقول "ولكن هذا الضعف الذي نقاومه بين سقطة وقيام حتى الموت.. سينتهي بتجديد آخر قال عنه الرب: "في التجديد متى جلس ابن الإنسان على كرسي مجده تجلسون أنتم على اثني عشر كرسيًا" (مت ١٩: ٢٨). فيسمى الرب القيامة الأخيرة تجديدًا وقد سماها بولس الرسول (تبنى وفداء) إذ قال "نحن الذين لنا باكورة الروح نحن أنفسنا أيضاً نحن في أنفسنا متوقعين التبني فداء أجسادنا" (رو ٨: ٣).

ثم يتساءل القديس أوغسطينوس قائلاً: "ألم نتجدد؟ ألم نحصل على التبني والفداء بالمعمودية المقدسة؟ نعم ولكن يوجد أيضاً تجديد وتبني وفداء يجب أن نتوقعه بالصبر". ويجمل القول: "لهذا فخلاص الإنسان قد حدث فعلاً في المعمودية.. ولكن ثمة خلاص آخر سوف يحصل عليه المؤمن (في المجيء الثاني) وبهذا الخلاص لا يستطيع أن يخطئ".

(N . & P. Frs 1st. Ser. Vol 5 P. 404)

الفصل الثاني دوافع الخلاص

أولاً :- المحبة
ثانياً :- الرحمة

قد عرفنا في معرض حديثنا عن سر الخلقة أن دوافع الخلقة تركزت في محبة الله ومسرته بإيجاد آدم ليتمتع بخيراته في الجنة التي غرسها له. وهكذا أيضاً يا عزيزي فإن خلاص الله للإنسان ليرده إلى رتبته الأولى ويعيده إلى فردوس النعيم هو عمل من أعمال المحبة والرحمة:

أولاً:- المحبة:

ويوضح لنا ذلك رسول المحبة يوحنا الحبيب بقوله: "بهذا أظهرت محبة الله فينا أن الله قد أرسل ابنه الوحيد إلى العالم لكي نحيا به. في هذا هي المحبة ليس أننا أحببنا الله بل أنه هو أحبنا وأرسل ابنه كفارة لخطايانا". (يو ١٠، ٤: ٩).

فتأمل يا أخي قوله: في هذا هي المحبة ليس أننا أحببنا الله بل أنه هو أحبنا وأرسل ابنه كفارة لخطايانا. فوضح بهذا دوافع الخلاص العميق وكأنه يردد قول السيد المسيح "هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية"، (يو ٣: ١٦).

ولا تستطيع يا أخي أن تدرك معنى كلمة (هكذا) المذكورة في هذه الآية ويعنى بها السيد المسيح (بهذا المقدار) إلا إذا لمست صورة الحب الإلهي للبشرية كما رسمها بريشته الشاعرية حزقيال النبي في:

أنشودة الحب الإلهي:

"أما ميلادك يوم ولدت لم تقطع سرتك، ولم تغسلي بالماء للتنظيف، ولم تملحي تمليحاً، ولم تقمطي تقميطاً، ولم تشفق عليك عين لتصنع لك واحدة من هذه لتترق لك. بل طرحت على وجه الحقل بكراهة نفسك يوم ولدت. فمررت بك ورأيتك مدوسة بدمك، فقلت لك بدمك عيشي ... مررت بك ورأيتك وإذا زمنك زمن الحب فبسطت ذيلي عليك، وسترت عورتك، وحلفت لك، ودخلت معك في عهد بقول السيد الرب، فصرت لي. فحممتك بالماء، وغسلت عنك دماءك، ومسحتك بالزيت، وألبستك مطرزة، ونعلتك بالتخس وأزرتك بالكتان، وكسوتك بزاً، وحليتني بالحلي، فوضعت إسورة في يدك، وطوقاً في عنقك، ووضعت خزامة في أنفك وأقراطاً في أذنيك، وتاج جمال على رأسك، ... وأكلت السميز ... وجملت جداً جداً فصلحت لمملكة.

وخرج لك اسم في الأمم لجمالك، لأنه كان كاملاً ببهائي الذي جعلته عليك يقول السيد الرب" (حز ١٦: ٤-١٤).

هذه هي أنشودة الحب الإلهي كما رأيت، فتأمل مقدار هذه المحبة: من هي تلك النفس التي أحبها الله؟ هي نفس مطروحة على وجه الحقل! لم تغسل من دماء الولادة ولم تعطف عليها عين!! عجباً ما معنى هذا؟ هل توجد مثل هذه القساوة في قلب أي أم أو أي أب؟! اللهم إلا إذا كانت هذه النفس المطروحة على وجه الحقل هي (لقيطة) !

نعم .. وبالرغم من هذا يقول السيد الرب : مررت بك فوجدت زمنك زمن الحب !! أي حب هذا؟ وماذا فيها يحب؟ هل تحبها يارب من أجل نجاستها؟ إنها ملوثة بدماء الخطية والدنس.. فكيف تحبها؟!

ربما يا أخي إذا مررت بلقيط اشمازت نفسك، وربما أبلغت الشرطة لضبط الجريمة. أما معاملة الله فهي تختلف عن ذلك تماماً..

آه يا عزيزي .. يا من بالاثم صورت وبالخطية حبل بك.. إن الرب يمر ويراك في دنسك ونجاستك.. ولا يقف ليحاكمك ويقتص منك.. وإنما يبسط ذيله ويسترك، ويدخل معك في عهد مقدس فتصير له.. انظر ماذا يفعل معك الرب.

يحممك بالماء ويغسل دماغك.. إذ يطهرك بغسل الماء والكلمة (في المعمودية).

يمسحك بالزيت.. مسحة الروح القدس (الميرون).

يلبسك مطرزة.. فيكسوك ثوب البر.

يحلبيك بالحلي.. أي مواهب الروح القدس.

وتاج جمال على رأسك.. أي يتوجك بخوذة الخلاص.

وأكلت السميز ... سر التناول من جسد الرب ودمه.

هل عرفت إذن يا أخي مقدار هذا الحب الإلهي؟

هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية.

وما أجمل ما كتبه القديس يوحنا ذهبي الفم: "إنه من المستحيل أن يتخير أحد الموت لأجل رجل بار، ولكن انظروا إلى محبة السيد الذي لم يمت لأجل الأبرار بل لأجل الأثمة والأعداء".

ثانياً :- الرحمة

وهي شعاع المحبة الذي يحمل نور الخلاص. إذ يقول معلمنا بولس الرسول "لا بأعمال في بر عملناه نحن بل بمقتضى رحمته خلصنا" (تى ٣: ٥).

فتأمل هذا القول: بمقتضى رحمته خلصنا، فإذا تطلع الرب إلى نهاية الإنسان التعيسة في جهنم الأبدية تحرك قلبه بالشفقة والرحمة، فأرسل ابنه الحبيب لينقذنا مما هو عتيد أن يصير للأثمة.

هذا هو عمل الرحمة الغنية كما قال بولس الرسول "الله الذي هو غنى في الرحمة من أجل محبته الكثيرة التي أحبنا بها ونحن أموات بالخطايا أحياناً مع المسيح". (أف ٢: ٤).

عزيزي ألا ترفع قلبك الآن صارخاً قائلاً: "الكني اتكل على غنى رحمتك ومحبتك للبشرية.. اللهم اغفر لي أنا الخاطئ وارحمني" (من الأجبية).

قل له "الآن اتكل على غنى رأفتك التي لا تفرغ، فلا تتخل عن قلب خاشع مفتقر لرحمتك" (من الأجبية).

اشكر الله على غنى رحمته ومحبته التي بها عاملنا، فقبلنا إليه وغسلنا من خطايانا وأعتقنا من كل إثم.

طرق الخلاص

"وعلمنا طرق الخلاص"
(القداس الباسيلي)

أولاً :- دم المسيح
ثانياً :- روح المسيح
ثالثاً :- ظهور المسيح

يقول القديس باسيليوس في قداسه "وعلمنا طرق الخلاص". في حين أن القديس كيرلس يقول في قداسه "ادخلهم جميعاً إلى طريق خلاصك".

ولأول وهلة يظهر أن هناك اختلافاً بين قول القديسين فأحدهما يقول "طرق الخلاص" والآخر يقول "طريق الخلاص". فهل يوجد أكثر من طريق واحد للخلاص ذاك الذي كتب عنه "ليس بأخذ غيره الخلاص لأنه ليس اسم آخر تحت السماء قد أعطى بين الناس به ينبغي أن نخلص" (أع ٤: ١٢).

في الواقع لا يوجد اختلاف بين القولين فالقديس كيرلس يتكلم عن الطريق الأوحدهم للخلاص وهو شخص الرب يسوع المبارك والقديس باسيليوس يتكلم عن وسائل هذا الخلاص المبارك. مكتملة في شخص المسيح وهي:-

أولاً :- دم المسيح:

إن دم المسيح هو الوسيلة الوحيدة للخلاص من عقوبة الخطية أي الموت الأبدي. "أجرة الخطية هي موت" (رو ٦: ٢٣). لأنه "بدون سفك دم لا تحصل مغفرة" (عب ٩: ٢٢).

فقدم المسيح دمه على الصليب للتكفير عن خطايانا .. وللتبرير من جرمها .. والتطهير من أدناسها.

فتأمل يا أخي قيمة هذا الدم وعمله في الخلاص كما يشهد الكتاب نفسه. "متبررين مجاناً بنعمته بالفداء الذي ببسوع المسيح الذي قدمه الله كفارة بالإيمان بدمه لإظهار بره من أجل الصفح عن الخطايا السالفة بإمهال الله" (رو ٣: ٢٤).

الذي فيه لنا الفداء بدمه غفران الخطايا (أف ١: ٧، كو ١: ١٤).

ولكن الله بين محبته لنا لأنه ونحن بعد خطاة مات المسيح لأجلنا فبالأولي كثيراً ونحن متبررين الآن بدمه نخلص به من الغضب. (رو ٥: ٨).

يسوع المسيح.. أجبنا وقد غسلنا من خطايانا بدمه. (رو ٥: ١).

من فضلك اقرأ هذه الآيات مرة ثانية ببطء وتفهم وقف عند كلمات: متبررين، كفارة، الصفح عن الخطايا، الفداء، غفران الخطايا، نخلص من الغضب، غسلنا من خطايانا.. لأن هذا هو عمل دم المسيح المهرق على خشبة العار لفدائك "إنكم افتديتم لا بأشياء تفنى بفضة أو ذهب من سيراتكم الباطلة بل بدم كريم كما من حمل بلا عيب ولا دنس دم المسيح. (١بط ١: ١٨-١٩).

هل أدركت إذن يا مبارك عمل دم المسيح لك؟

أنا أخشى أن يكون إدراكك عقلياً دون أن تؤمن به بقلبك وتتق فيه ثقة كاملة.. ولعل الأمثلة الآتية تحرك شغاف قلبك لتقبل عمل الدم بإيمان ثابت غير مرتاب وغير ناقص:

١- أرى الدم وأعبر:

عندما كان بنو إسرائيل في أرض العبودية في مصر، تحت سلطان فرعون، صرخوا إلى الرب إلههم ليخلصهم من يد فرعون الذي مرر حياتهم بعبودية مرة.

فاستجاب لهم الرب وأرسل موسى لينقذهم. فمد الرب يده وضرب المصريين ضربات مرعبة كانت أشدها هولاً الضربة الأخيرة وهي قتل كل ابن بكر في بيت المصريين.

ولكي تتجو بيوت الإسرائيليين من هذه الضربة أمرهم الرب أن يذبحوا خروفاً في كل بيت ويرشوا من دمه على باب المنزل (على العتبة العليا والقائمتين) حتى إذا مر الملاك المهلك ويرى الدم لا يهلك أبكار هذا البيت "ويكون لكم الدم علامة على البيوت التي أنتم فيها. فأرى الدم وأعبر عنكم فلا يكون عليكم ضربة للهلاك حين أضرب أرض مصر". (خر ١٢: ١٣).

هذه الحادثة يا أخي هي رمز لدم المسيح الذي إذا رشت به قلوبنا لا تكون علينا ضربة للهلاك "نحن متبررين الآن بدمه نخلص به من الغضب". (رو ٥: ٩).

٢- ويدخل بدمه فيكفر:

رسم الرب لبنى إسرائيل في العهد القديم وسيلة الفداء وطريق الخلاص أنه بالدم، فأمر كل من يخطئ أن يقدم ذبيحة ويرش دمه على المذبح فيكفر عن خطاياهم. ويرسم لهم يوماً يقام فيه احتفال كبير ويدعى يوم الكفارة العظيم وفيه يتقدم رئيس الكهنة ويذبح تيس الخطية.. ويدخل بدمه إلى داخل.. فيكفر عن القدس من نجاسات بنى إسرائيل ومن سيئاتهم مع كل خطاياهم.. ويأخذ من دم الثور ومن دم التيس ويجعل على قرون المذبح مستديراً وينضح عليه من الدم. (لا ١٩، ١٦: ١٥). كان هذا كله رمزاً إلى دم المسيح الذي كتب عنه بولس الرسول "ليس بدم تيروس وعجول بل بدم نفسه دخل مرة واحدة إلى القديس فوجد فداء أبدياً". (عب ٩: ١٢). هذا هو الفداء الأبدي الذي صنعه يسوع البار لنا بدمه.

٣- من أجلك بذلت دمي:

يحكى في الأدب الصيني عن حاكم أمر وزيره بأن يصنع له ناقوساً يكون من الفخامة بحيث يسمع رنينه على بعد مئات الأميال. وأمره أن يقوى صوته بالنحاس وأن يعمقه بالذهب ويحليه بالفضة، وأن يعلقه في وسط العاصمة. فجمع الوزير الصناع المهرة وأخذوا في صهر المعادن ولكن ما أشد خيبتهم عندما صبوا المزيج فانفصلت المعادن بعضها عن بعض. ومع ذلك أمر الوزير بإعداد المزيج مرة ثانية إذ باعت محاولتهم بالفشل. فلما علم الحاكم استشاط غضباً وتوعد الوزير بالإعدام إن لم تتجح المحاولة الثالثة.

وكان للوزير ابنة وحيدة، عندما سمعت ذلك انفطر قلبها حزناً على مصير أبيها. فجابت البلدان تسأل عن حل لهذه المشكلة. فتقابلت مع أحد الشيوخ المحنكين فقال لها: لن يقترن الذهب بالنحاس، ولن يعانق الحديد الفضة ما لم يصهر معها لحم عذراء، وما لم تمتزج المعادن بدمها. وفي يوم المحاولة الثالثة والأخيرة لصب الناقوس، جلست الفتاة بجوار صهريج المعادن المنصهرة. وما أن هم الوزير ليصدر الأوامر للصناع ببدا الصب حتى قذفت الفتاة بنفسها في جحيم المعادن الملتهبة ليمتزج بها لحمها ودمها. وكانت كلماتها الأخيرة: "من أجلك يا أبى بذلت دمي".

فما أن رأى الوزير ابنته الوحيدة تلقى بنفسها حتى هم بأن يلحق بها لولا أن المحيطين به قد امسكوه.. وعلق الناقوس في وسط العاصمة فكان كلما ارتفع صوته دوى في آذان الجميع بكلمات الفتاة الأخيرة..

عزيزي إن غضب الله معلن من السماء على البشرية التي فشلت في صنع إنسان جديد طاهر قديس.. وأين له الطهارة إن لم يمتزج بدم ابن الله القدوس الذي بذل ذاته على الصليب ليهرق دمه فيخلط بطبيعتنا البشرية المتنافرة فيوفق بينها.. "من يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت في وأنا فيه". (يو ٦: ٥٦). هو ذا ناقوس الكنيسة معلق في منارتها تحت الصليب ليعلن صوت الفادي: من أجلك بذلت دمي "ونحن بعد خطاه مات المسيح لأجلنا". (رو ٥: ٨).

٤- ثياب مغسلة في الدم:

لعلك قد عرفت يا أخي أن دم المسيح هو الوسيلة الوحيدة للخلاص من قصاص الخطية وعقوبتها، ولعلك اغتسلت في هذا الدم فابيضت ثيابك من أدناس الخطية لتستحق أن تقف أمام العرش الإلهي. تأمل ما كتبه يوحنا الرائي في هذا الصدد:

"بعد هذا نظرت وإذا جمع كثير لم يستطيع أحد أن يعده من كل الأمم والقبائل والشعوب والألسنة واقفون أمام العرش وأمام الخروف متسرلين بثياب بيض وفي أيدهم سعف النخيل. وهم يصرخون بصوت عظيم قائلين الخلاص لإلهنا الجالس على العرش وللخروف.. وأجاب واحد من الشيوخ قائلاً لي: هؤلاء المتسرلين بالثياب البيض من هم؟ ومن أين أتوا؟ فقلت له: يا سيد أنت تعلم.

فقال لي: هؤلاء هم الذين أتوا من الضيقة العظيمة وقد غسلوا ثيابهم في دم الخروف. من أجل ذلك هم أمام عرش الله ويخدمونه نهاراً وليلاً في هيكله والجالس على العرش يحل فوقهم". (رؤ ٧: ٩-١٥).

إن ثوب البر الذي تلبسه يا أخي كثيراً ما يتسخ أثناء اجتيازك في الضيقة العظيمة بأدناس الخطية، ولا توجد وسيلة أخرى تغسل هذه الأدناس إلا دم المسيح "الذي أحبنا وقد غسلنا من خطايانا بدمه" (رؤ ١: ٥).

كم أخشى يا أخي أن تعتبر حديثي هذا عن الدم من قبيل الحديث عن حادثة تاريخية انقضى عليها حوالي ألفي عام.. دون أن تكون قد اتخذته رسالة حياة لك الآن لتثق لا بعقلك بل بقلبك في عمل هذا الدم لك شخصياً. أقول لك بصراحة تامة أنك إن لم تثق في عمل هذا الدم بأنه سدد كل ديونك وكفر عن كل آثامك وبرأك من كل الجرائم والخطايا التي ارتكبتها، فلا تكون قد استقذت من الدم شيئاً على الإطلاق، بل ستظل تعاني من رعب المخاوف وكآبة الحزن وقلق اليأس، لا في هذا الدهر فقط بل في الآتي ولا تكون قد انتفعت شيئاً من خلاص يسوع المقدم لك مجاناً. أناشدك يا عزيزي المبارك أن تنتفع بمواعيد الرب هذه:

إذا لا شيء من الدينونة الآن على الذين هم في المسيح يسوع السالكين ليس حسب الجسد بل حسب الروح. (رو ٨: ١). متبررين مجاناً بنعمته بالفداء الذي بيسوع المسيح. (رو ٣: ٢٤).

لأنني أكون صفوحاً عن آثامهم ولا أذكر خطاياهم وتعدياتهم فيما بعد. (عب ٨: ١٢). ماذا تريد إذن يا أخي بعد كل هذه الطمأنينة وهذا الصفح، أليس من الجهل أن تظل حاملاً ثقل خطاياك وأنت في المسيح يسوع؟!.

قصة:-

كان أحد الأثرياء في عربته عندما أبصر امرأة تتوء تحت ثقل (قفة) كانت تحملها فوق رأسها. فأشفق عليها وأذن لها أن تركب العربة ليوصلها إلى المكان الذي تريد أن تذهب إليه، فركبت، وانطلقت العربة.. وفي الطريق التفت الثرى إلى الخلف ولشد ما كانت دهشته عندما رأى المسكينة وهي داخل العربة لا زالت تحمل (القفة) فوق رأسها!!.

أليس هذا هو حالك أيها المسكين؟ فبالرغم من أنك في المسيح يسوع، إلا أنك تستكثر عليه أنه يستطيع أن يحمل عنك خطاياك فتظل مثقلاً بها نفسك.

إذن ماذا تكون قيمة قوله "تعالوا إلى يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال وأنا أريحكم"؟! ليتك تثق في قوله "أنا أنا هو الماحي ذنوبك لأجل نفسي وخطاياك لا أذكرها". (أش ٤٣: ٢٥). إن فاعلية الدم يا أخي تسرى إلي كل مؤمن خلال سرى المعمودية والتوبة فليتك تمارسهما بإيمان.

ثانياً:- روح المسيح:

كان الطريق الأول من طرق الخلاص هو دم المسيح للتبرير وهوذا الطريق الثاني للخلاص وهو روح المسيح للتحرير من سلطان الخطية.

معلمنا بولس الرسول يقول: "ناموس روح الحياة في المسيح يسوع قد أعتقني من ناموس الخطية والموت" (رو ٨: ٢). ويقصد بقوله "روح الحياة في المسيح يسوع" أي الروح القدس. فقوة الروح القدس تحرر من سلطان الخطية.

هب أن مائة رجل أخذوا يدفعون طائرة إلى العلاء فهل ينجحون في محاولاتهم لجعلها تحلق في الجو؟ كلا. فكلما ارتفعت الطائرة سقطت على الأرض بفعل الجاذبية الأرضية، وربما تهشمت أيضاً. ولكن عندما يدخل المهندس

الطيار إلى مكان القيادة ويدير أزراراً معينة تندفع الطائرة في قوة جبارة لتحطيم قانون الجاذبية الأرضية وتتغلب عليه وتحلق في جو السماء. هكذا الحال معك يا مبارك فبدون قوة الروح القدس لن تتحرر من جاذبية الخطية، فإذا قد حصلت على سكناه في داخلك بالميرون عليك أن تضرمه بواسطة النعمة حتى ينطلق فيك قوة جبارة تحررك.

ثالثاً:- ظهور المسيح:

هذا هو الطريق الثالث من طرق الخلاص وبه يتم تغيير الأجساد الترابية إلى أجساد روحانية لتكون على صورة جسد مجده. ويتم ذلك بواسطة شخص الرب يسوع ذاته عند ظهوره الثاني في مجده "فان سيرتنا نحن هي في السموات التي منها ننتظر مخلصاً هو الرب يسوع المسيح الذي سيغير شكل جسد تواضعنا ليكون على صورة مجده" (في ٢١، ٣: ٢٠).

وعلى هذا الرجاء يا أخي نحن نعيش ونرقد أيضاً. بل ومن أجل هذا الرجاء نظهر أنفسنا كما قال الرسول: "أيها الأحباء الآن نحن أولاد الله ولم يظهر بعد ماذا سنكون، ولكن نعلم أنه إذا أظهر نكون مثله لأننا سنراه كما هو، وكل من عنده هذا الرجاء به يظهر نفسه كما هو طاهر". (١ يوحنا ٣: ٢).

هل تنتظر مجيء الرب يسوع من السماء يا أخي بفرح واشتياق؟ لقد أوصانا الرسول قائلاً "سيأتي كلص في الليل يوم الرب الذي فيه تزول السموات بضجيج وتتحل العناصر محترقة وتحترق الأرض والمصنوعات التي فيها. فيما أن هذه كلها تتحل أي أناس يجب أن تكونوا؟ في سيرة مقدسة وتقوى، منتظرين وطالبيين سرعة مجيء يوم الرب .. بحسب وعده ننتظر سموات جديدة وأرضاً جديدة يسكن فيها البر". (٢ بط ١٠: ١٣). فهل أنت منتظر وطالب سرعة مجيء يوم الرب؟ ليعطك الرب حياة السهر والانتظار لتتمتع بخلاص الرب التام والتمتع بأمجاد السماء وبروعة الوجود مع الرب في كل حين. آمين.

عمل الخلاص

أولاً :- التبشير من قصاص الخطية
ثانياً :- التحرير من سلطان الخطية
ثالثاً :- التغير من جسد الخطية

لقد نلنا بالخلاص المبارك الذي صنعه الرب لنا بدمه ويكمله لنا بروحه وسيتممه لنا بظهوره بركات عديدة تضمها ثلاث تغيرات هي: التبرير ، التحرير ، التغيير .

أولاً :- التبرير من قصاص الخطية:

ومعنى التبرير هو التبرئة من قصاص الخطية وعقوبتها. وقد تم لنا ذلك بواسطة دم المسيح المسفوك على عود الصليب "متبررين مجاناً بنعمته بالفداء الذي بيسوع المسيح.. بالإيمان بدمه" (رو ٣: ٢٥). ويعود الرسول فيقول "ونحن متبررون الآن بدمه نخلص به من الغضب". (رو ٥: ٩).
فهل نتق يا أخي أن المسيح قد برأك بسفك دمه عنك؟ إن كنت تؤمن بذلك فقد صار لك سلام مع الله "فإذ قد تبررنا بالإيمان لنا سلام مع الله". (رو ٥: ١).
أليس علي هذا الإيمان قد قبلنا سر المعمودية؟ وأليس علي أساسه نمارس سر التوبة طيلة أيام حياتنا؟

١ - عمل التبرير:

والتبرير يا أخي المبارك يشمل: التكفير والتطهير.

(أ) التكفير

"متبررين مجاناً بنعمته بالفداء الذي بيسوع المسيح الذي قدمه الله كفارة بالإيمان بدمه لإظهار بره من أجل الصفح عن الخطايا السالفة بإمهال الله". (رو ٣: ٢٤).
وللتكفير معنيان:

المعنى الأول هو التعويض عما اقترفناه من جرم استرضاء لعدالة الله الآب التي توجب موت الخاطئ. (رو ٦: ٢٣).
وفي هذه الحالة يسمى التكفير (فداء) فالمسيح قدم نفسه كفارة أي فدية بموته بدلاً منا "ولكن الله بين محبته لنا لأنه ونحن بعد خطاة مات المسيح لأجلنا". (رو ٨: ٣).
المعنى الثاني هو ستر خطايانا بثوب بر المسيح وهذا هو المعنى الأصلي لكلمة (كفر) بالعبرية، وفي هذه الحالة يسمى التكفير (غفران) وكلمة (غفر) هي نفس كلمة كفر العبرية أي ستر ..
(The International standard Encyclopedia Vol 11P. 1132.)

فالمسيح بموته على الصليب ألبسنا ثوب الخلاص المنسوج بدمه ليستر خطايانا حتى إذا تطلع إلينا الآب لا يرى خطايانا بل يرى ابنه الحبيب يكسونا كرداء "تبتهج نفسي بإلهي لأنه قد ألبسني ثياب الخلاص كساني رداء البر". (أش ٦١: ١٠).
أخي هل نتق إذن وتتكلم في طمأنينة على هذا العمل الكفاري العظيم؟

(ب) التطهير

"دم يسوع المسيح ابنه يطهرنا من كل خطية" (١ يو ١: ٧). ومعنى التطهير هنا هو التنظيف أي الغسيل وهذا يتم أيضاً بواسطة دم المسيح "يسوع المسيح أحبنا وقد غسلنا من خطايانا بدمه" (رو ١: ٥).
فالمسيح يا أخي لا يكتفي بأن يستر خطيتك فحسب بل هو يسترها حتى يغسلها "فبسطت ذيلي عليك وسترت عورتك.. فحممتك بالماء وغسلت عنك دماءك". (حز ١٦: ٨-٩).
شكراً للرب - هذا يا أخي عمل التبرير: تكفير وتطهير.

٢- ثمر التبرير:

أما ثمر التبرير فهو: مصالحة ومسامحة.

(أ) مصالحة

أيوب قديماً يصرخ قائل: "ليس بيننا مصالح يضع يده على كلينا" (أي ٣٣: ٩). ولكننا قد وجدناه إذ يقول بولس الرسول "إن الله كان في المسيح مصالماً للعالم لنفسه غير حاسب لهم خطاياهم" (٢كو ٥: ١٩). فإن الخطية يا أخي صنعت عداوة بينك وبين الله، واحتاج الأمر إلى مصالح. فالمسيح إذ كفر عن خطايانا وغسلنا من آثامنا تقدم ليصالحنا مع الله أبيه "لأن فيه سر أن يحل كل الملاء وأن يصالح به الكل لنفسه عاملاً الصالح بدم صليبه .. وأنتم الذين كنتم قبلاً أجنبيين وأعداء في الفكر في الأعمال الشريرة قد صالحكم الآن في جسم بشريته بالموت ليحضركم قديسين وبلا لوم ولا شكوى أمامه" (٢٢: ١٩-٢٢). لا تخف إذن يا أخي من الله فالمسيح قد صالحك معه بموته.

(ب) مسامحة

"إذ كنتم أمواتاً في الخطايا وغلف جسديكم أحياكم معه مسامحاً لكم بجميع الخطايا". (كو ٢: ١٣). إن التبرير يا أخي مبني على أساس المسامحة، فشكراً لله الذي سامحنا وصفح عن خطايانا التي فعلناها بإرادة أو بغير إرادة .. بمعرفة أو بغير معرفة، كل الخطايا السالفة "الذي قدمه الله كفارة بالإيمان بدمه لإظهار بره من أجل الصفح عن الخطايا السالفة" (رو ٣: ٢٥).

هل تستكثر خطاياك على المسيح؟ فإله قد سامحك عنها أفلا تقبل هذا الخلاص الإلهي "أنا أنا هو الماحي ذنوبك لأجل اسمي وخطاياك لا أذكرها" (أش ٤٣: ٢٥). "قد محوت كغيم ذنوبك وكسحابة خطاياك. ارجع إلى لأنني فديتك" (أش ٤٤: ٢٢). "هلم نتحاج يقول الرب إن كانت خطاياكم كالقرمز تبيض كالثلج وإن كانت حمراء كالودودي تصير كالصوف" (أش ١: ١٨). أناشدك يا أخي أن تعود فتقرأ هذه الوعود وتضع خطاياك تحت الدم، وليتك تتشد قائلاً:
رش قلبي بدماك طهرني بالتمام
كرسني لرضاك واملاً القلب سلام
وليترك تذهب إلى أب اعترافك لتقر بخطاياك أمامه كوكيل الله ليقراً لك جلاً بحسب سلطان المسيح المعطى للكهنوت "من غفرتم خطاياهم تُغفر له" (يو ٢٠: ٢٣).

ثانياً :- التحرير من سلطان الخطية:

عرفنا فيما سبق أن عمل الخلاص يشمل التبرير من عقوبة الخطية بدم المسيح وسترى الآن عملاً آخر من أعمال الخلاص هو: التحرير من سلطان الخطية بروح المسيح. "لأن ناموس روح الحياة في المسيح يسوع قد أعتقني من ناموس الخطية والموت". (رو ٨: ٢).

١- عمل التحرير:

ويتم تحريرك من سلطان الخطية بواسطة عمليتين يقوم بهما الروح القدس وهما: (أ) التجديد ، (ب) والتأييد .

(أ) التجديد:

"لا بأعمال في بر عملناها نحن بل بمقتضى رحمته خلصنا بغسل الميلاد الثاني وتجديد الروح القدس". (تى ٣: ٥). فالتجديد هو من عمل الروح القدس. وهو على نوعين:
النوع الأول – تجديد الطبيعة: "إن كان أحد في المسيح يسوع فهو خليفة جديدة .. الأشياء العتيقة قد مضت هو ذا الكل قد صار جديداً". (٢كو ٥: ١٧).
ويتم بالولادة من الروح القدس "إن كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله". (يو ٣: ٥) هذا هو ما يتم في سر المعمودية المقدس.

والمولود من الله يتحرر من سلطان الخطية ولا يقوى عليه إبليس "كل من ولد من الله لا يخطئ بل المولود من الله يحفظ نفسه والشرير لا يمسّه". (١يو ٥: ١٨).

حقيقة يا أخي أنك قد وُلدت من الروح في المعمودية ولكن لم تتحرر بعد من سلطان الخطية بل ما زلت مستعبداً لها فما السبب؟

السبب هو أنك تُحزن الروح القدس الساكن فيك. (أف ٤: ٣٠). وتطفئه. (أف ٥: ١٩). بل تقاومه. (أع ١٧: ٥١).

فكيف يستطيع أن يعمل على تحريرك؟ .. سلم له قيادة حياتك فيعتقك من سلطان الخطية والموت. (رو ٨: ٢).

النوع الثاني – تجديد الذهن: "إن تخلعوا من جهة التصرف السابق الإنسان العتيق الفاسد بحسب شهوات الغرور .. وتتجددوا بروح ذهنكم .. وتلبسوا الجديد المخلوق بحسب الله في البر وقداسة الحق". (أف ٤: ٢٢-٢٤).

ففي تجديد الذهن خلع لتصرفات الإنسان العتيق أي تحرير من سلطانه ولبس للإنسان الجديد الذي يتجدد للمعرفة حسب صورة خالقه. (كو ٣: ٩). فيغيرنا الروح إلى تلك الصورة عينها من مجد إلى مجد "حيث روح الرب هناك حرية، ونحن جميعاً ناظرين مجد الرب بوجه مكشوف كما في مرآة نتغير إلى تلك الصورة عينها من مجد إلى مجد كما من الرب الروح". (٢كو ١٨، ٣: ١٧).

فتجديد الذهن هو عملية تحريره من كل سلطان لينتقل من مجد إلى مجد وليختبر إرادة الرب "تغيروا عن شكلكم بتجديد أذهانكم لتختبروا ما هي إرادة الله الصالحة المرضية الكاملة". (رو ١٢: ٢).

(ب) التأييد :

"يعطيكم بحسب غنى مجده أن تتأيّدوا بالقوة بروحه في الإنسان الباطن". (أف ٣: ١٦). الله يعلم أننا ضعفاء إزاء قوى الشر المحاربة ضدنا (العالم، الشيطان، الجسد) من أجل ذلك أيدنا بالقوة بروحه "ستتألون قوة متى حل الروح القدس عليكم". (أع ١: ٨).

فهل يا عزيزي قد قبلت روح القوة؟ أم أنك لم تسمع أنه يوجد روح قدس؟! وهل علاقتك بالروح القدس هي مجرد معرفة سطحية لا تتعدى العقل؟ ليتك تختبر قوة الروح القدس في حياتك يا أخي. اطلب تأخذ لأن "الآب الذي في السموات يعطى الروح القدس للذين يسألونه". (١١: ١٣). هذا يا مبارك عمل التحرير (تجديد وتأيد).

٢- ثمر التحرير:

أما ثماره فهي :

(أ) تبني ، (ب) وتقديس .

(أ) التبني

إن الروح القدس بواسطة تجديد طبيعتنا وولادتنا منه يصيرنا أولاد الله " أخذتم روح التبني الذي به نصرخ يا أبا الآب. الروح نفسه يشهد لأرواحنا أننا أولاد الله". (رو ٨: ١٦، ١٥). وكل الذين قبلوه أعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله أي المؤمنون باسمه الذين ولدوا ليس من دم .. بل من الله". (يو ٣: ١).
أخي هل تدرك معنى أنك ابن الله؟ "إذا لست بعد عبداً بل ابناً". (غل ٤: ٧). ليعطيك الرب أن تفهم مقامك عند الله.

(ب) التقديس :

"إله السلام يقدسكم بالتمام" (١ تس ٥: ٢٣).
للتقديس معنيان : المعنى الأول: تطهير أو تنقية.

فإن كان التجديد هو التتقية في بدايتها فالتقديس هو التتقية في تمامها وكما أن التجديد يتم بفعل الروح القدس، فالتقديس أيضاً هو نتيجة حتمية لعمل الروح "تقدستم .. بروح إلها". (١كو ٦: ١١). ويمكنك أن تحصل على هذه النعمة بواسطة الإيمان. "ظهر بالإيمان قلوبهم". (أع ١٥: ٩).

هل تثق في قدرة المسيح أنه يستطيع أن يطهرك بروحه؟ ليتك تتقدم إليه وتقول مع الأبرص "يا سيد إن أردت تقدر أن تطهرني" لتسمع قول الرب "أريد فاطهر" فنحصل على ما حصل عليه "ولوقت طهر من برصه". (مت ٨: ٢٠).

وبعد أن ننال التطهير بالإيمان لا بد وأن ننمو في حياة القداسة "مكملين القداسة في خوف الله". (١كو ٧: ١). وكلمة (مكملين) هنا في الأصل اليوناني تفيد التمرين أي التدريب في جهاد روحي طيلة أيام حياتنا، فالتطهير الداخلي الذي أتمه الروح القدس في حياتك ينمو باستمرار بممارسته في الحياة الروحية. فالطفل المريض إذا شفى من مرضه وتمتع بصحة جيدة، يحتاج أن ينمو ليصل إلى مرحلة الرجولة. هكذا فالخاطئ إذ يشفى من مرض الخطية يحتاج أن ينمو ليصل إلى قياس قامة ملء المسيح (اف ٤: ١٣).

المعنى الثاني للتقديس هو: التكريس أو التخصيص.
إذ يتجدد الإنسان يصبح هيكلًا لسكنى الروح القدس "أنكم هيكل الله وروح الله يسكن فيكم". (١كو ٣: ١٦).

وإذ يصبح الإنسان هيكلًا للروح لا يكون ملكًا لنفسه بل لله "أنكم لستم لأنفسكم لأنكم قد اشتريتم بثمن". (١كو ٦: ١٩).

في التجديد الرب أعطاك ذاته. وفي التكريس تعطى الرب ذاتك.
هل تعتبر أنك غير حر التصرف في ذاتك لأنك لست ملكًا لنفسك وعليك أن تستشير من اشتراك بدمه في كل تصرف تريد أن تفعله. وترضى روح الله الساكن فيك في كل شيء؟.

ثالثاً:- التغيير من جسد الخطية:

عرفت أن عمل الخلاص يشمل التبرير من قصاص الخطية بواسطة دم المسيح وأيضاً التحرر من سلطان الخطية بواسطة روح المسيح، وسترى الآن الجانب الثالث من عمل الخلاص وهو: تغيير جسد الخطية بواسطة ظهور المسيح.

"إن سیرتنا نحن هي في السموات التي منها ننتظر مخلصاً هو الرب يسوع الذي سيغير شكل جسد تواضعنا ليكون على صورة جسد مجده". (فى ٣: ٢١).
هذا التغيير يا أخي هو تبديل الجسد الترابي الحيواني المولود بالخطية ليصير جسداً نورانياً سماوياً روحانياً "يزرع جسماً حيوانياً ويقام جسماً روحانياً .. وكما لبسنا صورة الترابي سنلبس أيضاً صورة السماوي". (١كو ١٥: ٤٤-٤٩).
وللتغيير يا أخي ثمرة فريدة هي:
التمجيد:

هكذا قيامة الأموات. يزرع في فساد ويقام في عدم فساد. يزرع في هوان ويقام في مجد". (١كو ١٥: ٤٢).
لأن الذين سبق فعرفهم سبق فعينهم .. والذين سبق فعينهم فهؤلاء دعاهم أيضاً والذين دعاهم فهؤلاء بررهم أيضاً، والذين بررهم فهؤلاء مجددهم أيضاً". (رو ٨: ٣٠).

أي مجد تريد أن تتمتع به في الأبدية؟ أطمع في أكاليل المجد؟ أم تبهرك أنوار المدينة؟ أم تستهويك الثياب البيض؟

أخي إن المجد الذي أنتظره هو شرف رؤية حبيبي من خلصني، الذي وإن كنت لا أراه الآن ولكنني أؤمن به فأبتهج بفرح لا ينطق به ومجيد، فكم وكم يكون فرحي عندما أراه وجهاً لوجه، عندما لا أنظره في مرآة ولا أبصره في لغز.
هذا هو اللقاء الذي أتوقعه في كل لحظة .. والأمل الذي أحيأ لأجله .. والرجاء الذي أرقبه بلهفة .. آمين تعال أيها الرب يسوع.

خلاصة

لعلك لاحظت يا أخي أن عظمة الخلاص تدور حول ثلاث نقاط أساسية تناولها الروح في هذه الرسالة من ثلاث زوايا مختلفة حتى تتضح لك جيداً وتنفذ من فكرك إلى قلبك وهي:

التبرير، والتحرير، والتغيير إلى الجسد النوراني.
وإزاء هذه النعمة الغنية .. لا يسعنا إلا أن نقدم الشكر لإلهنا على عطيته التي لا يعبر عنها.

نعم لك الشكر يا مخلصي لأنك وفيت ديوني ودفعت كل الثمن. لك الشكر لأنك تعلم مقدار احتياجي إليك في حياتي الحاضرة، لذلك ضمنت لي خلاصاً من سلطان الخطية بروحك الأمين. حقاً إني بدونك لا أستطيع المقاومة والتغلب. لكن شكراً لك يا من تقودنا كل يوم في موكب نصرتك في المسيح يسوع ربنا.

ولك الشكر لأجل الرجاء المبارك في الخلاص المتوقع والأخير حين مجيئك لتحررنا من جسد الخطية وتتنازل بأن تشاركنا معك في المجد.

قضية الخلاص

" حولت لي العقوبة خلاصاً "
(القداس الإلهي)

الفصل الأول : فلسفة الخلقة
الفصل الثاني : مشكلة الخطية
الفصل الثالث : تدبير الخلاص

فلسفة الخلقة

أولاً :- غاية الخلقة
ثانياً :- دوافع الخلقة
ثالثاً :- موقفك من الله
أولاً :- غاية الخلقة

أولاً :- غاية الخلق

كان هذا الموضوع نقطة بحث كثيرين من الفلاسفة والمفكرين، كما أنه موضوع تساؤل كل إنسان "لماذا خلقتني الله؟". وإذا فشل البعض في التعرف على الإجابة الصحيحة لهذا السؤال اعتبروا أن الحياة جناية ارتكبتها الآباء في حق الأبناء، حتى قال أحدهم (هذا جناح أبي على وما جنيت على أحد). ولذلك امتنع عن الزواج!!.

وصرخ آخر في وجه أمه قائلاً: (ويحك يا أمي فقد حكمت على بالإعدام) وقد اعتبر أن هذه الحياة إنما هي حكم إعدام!.

وأبواب في معمرة التجربة نراه يسب يومه قائلاً: "ليته هلك اليوم الذي ولدت فيه والليل الذي قال قد حبلى برجل، ليكون اليوم ظلاماً .. أما ذلك اليوم فليمسكه الدجى ولا يفرح بين أيام السنة .. لأنه لم يغلق أبواب بطن أمي ولم يستر الشقاوة عن عيني .. ثم يتساءل في تأفف: لم لم أمت من الرحم؟ عندما خرجت من البطن، لم لم أسلم الروح؟ لم يعطى لشقي نور وحياة لمسرى النفس؟ (أيوب ٢، ٣: ١)

لم يكن أيوب وحده من بين رجال الكتاب المقدس الذي قال هذا ولكننا نرى أرميا أيضاً يقول: "ملعون اليوم الذي ولدت فيه. اليوم الذي ولدتني فيه أمي، لا يكن مباركاً ملعون الإنسان الذي بشر أبي قائلاً قد ولد لك ابن ... لأنه لم يقتلني من الرحم فكانت لي أمي قبري ورحمها حبلى (بي) إلى الأبد. ثم يتساءل أيضاً في تأفف كأبواب قائلاً: "لماذا خرجت من الرحم لأرى تعباً وحزناً فتقنى بالخزي أيامي". (أرميا ٢٠: ١٤-١٨).

أليست هذه الأسئلة هي ما يدور بفكرنا خاصة عندما تصادف أية تجربة فتتبرم متسائلاً: لماذا خلقتني الله؟ مسكين حقاً هو ذلك الذي لم يتعرف بعد على الغاية من وجوده في هذه الحياة. فهل تعرف يا أخي لماذا أنت موجود؟ لماذا خلقتك الله؟

ربما تقول إن الله قد خلقتك لكي تعبدته! حسن أن تعبد الله، ولكن هل تظن أنه محتاج إلى عبوديتك، تأمل قول القديس إغريغوريوس في القداس الإلهي: "لست أنت محتاج إلى عبوديتي، بل أنا المحتاج إلى ربوبيتك" هو ليس في حاجة إلى عبادتنا، فلم يخلقنا من أجل هذه الغاية! وربما تقول إنه خلقتك لكي تمجده! حسن أن تمجد الله، ولكن هل تظن أنه من أجل هذه الغاية قد خلقتك؟ وهل تظن أنه محتاج إلى تمجيدنا؟ أسمع يسوع يقول: "مجداً من الناس لست أقبل". (يو ٥: ٤١). ثم يقول: "أبى هو الذي يمجدني". (يو ٨: ٥٤).

إن الله موجد في ذاته يا أخي، وإلا فهل كان غير موجد قبل خلقه العالم؟ اسمع قول يسوع "مجدني أنت أيها الأب بالمجد الذي كان لي عندك قبل كون العالم". (يو ١٧: ٥). إذن فما هي غاية الخلق؟ تتضح هذه الغاية عندما نفحص النقطة التالية وهي:

ثانياً:- دوافع الخلقة

إن الله لم يخلق الإنسان بدافع الأنانية حتى يعبدّه ويمجده إنما دوافع الخلقة تتركز في:

١ - المحبة:

ويوضح هذه الحقيقة القديس إغريغوريوس الناطق بالإلهيات في قداسه التأملية قائلاً:
"خلقتني إنساناً كمحب للبشر"

ويوحنا الحبيب يقول: "الله محبة" (١يو٤:٨). وكل ما يصدر عن الله هو عمل محبة، وعن المحبة تصدر إشعاعات النعمة المباركة التي عملت في الخلقة وهي:

٢ - الصلاح:

والصلاح معناه البذل والكرم، فإن كان الشخص الذي يمتلئ من روح الله تظهر فيه هذه الثمرة المباركة "أي الصلاح" كما جاء في رسالة بولس الرسول لأهل غلاطية (٥:٢٢). فكم بالحرى الله نفسه، فكل أعماله صادرة عن صلاحه، ولذلك فالقديس إغريغوريوس يبرز أيضاً هذا الجانب في القداس فيقول:
"الذي من أجل الصلاح وحده، مما لم يكن كونت الإنسان"

وللصلاح خاصية عجيبة أسهمت هي الأخرى في خلقة الإنسان ألا وهي:

٣ - التعطفات:

فبروح الحكمة الإلهية التي أوتيتها القديس إغريغوريوس يقول في قداسه: "من أجل تعطفاتك الجزيله كونتني إذ لم أكن".
فصلاح الله وكرمه ظهرا في تعطفاته الجزيله التي بها كون الإنسان وخلقه لغاية سامية تمثل الحلقة الأخيرة في سلسلة دوافع الخلقة ألا وهي:

٤ - المشاركة:

إن من خصائص المحبة الصادقة المشاركة .. ولنا في محبة الأب لأبنائه الجسديين مثالا لمحبة الله للإنسان، فالأب يتعب كثيراً لكي يعطي أولاده ويمتعهم، وإذا سألت أحد الآباء عن دوافعه التي تحركه للانفاق على أولاده لتيقنت أن المحبة الأبوية هي الدافع القوي لإشراك أولاده فيما له.
ولنتأمل يا أخي في الأمور التي أشركنا الله فيها معه والتي تمثل الغاية التي من أجلها خلقك.

(أ) شركة خواصه:

يكشف لنا الوحي الإلهي عما دار في عقل الله بخصوص خلقة الإنسان فتقرأ في سفر التكوين "وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا فخلق الله الإنسان على صورته. على صورة الله خلقه". (تك١٠:٢٦).
ولكن ماذا يقصد الوحي بقوله على صورة الله؟.

يوضح الآباء ذلك بقولهم:

"الله جل شأنه ليس له شبه ولا مثال، وإنما أشار بقوله هذا أن الإنسان ذو ثلاث خواص: أعنى ذا عقل ونطق وروح". (صلاة الإكليل).

هذه هي الشركة في خواص الله، فميزه عن بقية المخلوقات بالعقل والنطق والروح، وأصبحت يا أخي صاحب هذا الامتياز الإلهي!.

(ب) شركة سلطانه:

هذا هو امتياز آخر أعطاه الله للإنسان عند خلخته، فيقول الكتاب: "قال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم وعلى كل الأرض .. فخلق الله الإنسان .. وباركهم

الله وقال لهم .. املأوا الأرض وأخضعوها وتسلطوا على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى كل حيوان يدب على الأرض" (تك ١: ٢٦-٢٨).

هذه هي محبة الله يا أخي التي تريد إسعاد الإنسان فيعطيه من سلطانه ليتسلط على كل الأرض. تأمل هذا الامتياز يا أخي! فهل أنت متسلط فعلاً على كل الأرض؟ أم أن كل ما في الأرض متسلط عليك؟!.

(ج) شركة مجده:

فبطرس الرسول يقول "دعانا إلى مجده الأبدي" (بط ٥: ١٠). ولهذا يكتب أيضاً قائلًا: "أنا الشيخ .. شريك المجد العتيد أن يعلن" (١بط ٥: ١).

تأمل يا أخي فان الله لم يخلقك لتمجده، بل خلقك ليمجذك. "لأن الذين سبق فعرفهم سبق فعينهم .. فهؤلاء مجدهم أيضاً". (٢٩: ٨، ٣٠). أنظر أي امتياز أعطاك الرب؟؟.

(د) شركة طبيعته:

معلمنا بطرس الرسول يقول "قد وهب لنا المواعيد العظمى والثمينه لكي تصيروا بها شركاء الطبيعة الإلهية". (٢بط ١: ٤).

هذا هو اسمي امتياز يهبه الله للإنسان، إذ أخذ الذي لنا وأعطانا الذي له فقد تشارك في الجسد البشري ليشركنا في الروح الإلهي "أما تعلمون أنكم هيكل الله وروح الله يسكن فيكم" (١كو ٣: ١٦).

هل تبينت إذن يا أخي غاية خلقه الإنسان؟ رأيت كيف أن الله المحب الصالح أراد لحفنة من التراب "وجبل الرب الإله آدم تراباً من الأرض ونفخ في أنفه نسمة حياة فصار آدم نفساً حية". (تك ٢: ٧). أراد لهذه الحفنة الترابية أن تتمتع بخيراته وأمجاده، فدبر لها كل عوامل سعادتها؟.

أفبقي لك اعتراض بعد؟!

ألعل الجبله تقول لجابلها لماذا صنعتني؟!

شكراً لله الذي يحتمل غباوتنا كثيراً ..

ثالثاً:- موقفك من الله:

إزاء هذا الحب الأبوي ماذا ينبغي أن يكون موقفك من الله ؟. صدقني يا أخي المبارك لو أدركت مشاعر الله من نحوك، وتقطنت إلى عمق محبته لك لذابت نفسك فيه وسبى قلبك في حبه. ولكن دعنا نوضح بالتفصيل ما ينبغي أن يكون عليه موقفك من حبيب الروح.

١ - التمتع بعشرته:

آه يا أخي المبارك لو تلامس قلبك بتيار المحبة العلوي لسرى في جسدك شعاع نوراني يلقي بك في مجال الجاذبية العميق الذي لا تعود عنه تطيق انفصالاً. سباني بحبه سبياً عميقاً فما عدت عنه أطيق انفصالاً

حبيبي ستختبر بنفسك ما اختبرته العروس من قبلك فأنشدت قائلة: كالتفاح بين شجر الوعر كذلك حبيبي بين البنين، تحت ظله اشتجيت أن أجلس وثمرته حلوة لحلقي .. اسندوني بأقراص الزبيب أنعشوني بالتفاح فاني مريضة حباً شماله تحت رأسي ويمينه تعانقني". (نش ٢: ٣-٦).

آه يا مبارك لو انفتحت عينك لترى، وانفتح قلبك لتشعر بنيران المحبة الإلهية لصرخت في الحال قائلاً: "اجعلني كخاتم على قلبك. كخاتم على ساعدك لأن المحبة قوية كالموت. الغيرة قاسية كالهوية. لهيبها لهيب نار لظى الرب. مياه كثيرة لا تستطيع أن تطفئ المحبة والسيول لا تغمرها" (نش ٧، ٨: ٦). هل لك عشرة ممتعة مع الحبيب؟ إن لم . فلم لا؟! . أخشى وكل ما أخشاه أن تكون متعتك هي في الخطية؟!.

٢ - الشكر على نعمته:

متى أدركت أن وجودك هي نعمة قد أسبغها الرب عليك، ليمتعك بخيراته وإحساناته وأمجاده، سيلهج قلبك حمداً وشكراً معدداً إحسانات الرب إليك فتقول مع داود النبي: "باركي يا نفسي الرب، ولا تنسي كل حسناته .. الذي يغفر جميع ذنوبك .. الذي يشفي كل أمراضك .. الذي يفدي من الحفرة حياتك .. الذي يكللك بالرحمة والرافة .. الذي يشبع بالخير عمرك .. فيتجدد مثل النسر شبابك .." (مز ١٠٣: ١-٥).

إن القلب الذي يدرك محبة الله يجد أن كل ما خلق إنما خلق من أجله هو. هذا ما شعر به القديس إغريغوريوس فعدد في قداسه قائلاً:

"أقامت السماء لي سقفاً ..
وثبت لي الأرض لأمشي عليها ..
من أجلي ألجمت البحر ..
من أجلي أظهرت طبيعة الحيوان ..
أخضعت كل شيء تحت قدمي ..
لم تدعني معوزاً شيئاً من أعمال كرامتك ..
أنت الذي جبلتني ووضعت يدك على ..
ورسمت في صورة سلطانك ..
ووضعت في موهبة النطق ..
وفتحت لي الفردوس لأتتعم .."

وعندما يرى الإنسان أن كل ما خلق من أجله تزداد تشكراته لمجد الله.
"لأن جميع الأشياء هي من أجلكم لكي تكون النعمة وهي قد كثرت بالا كثيرين تزيد الشكر لمجد
الله". (٢كو ٤: ١٥).

٣- تمجيد عظمته:

اللحظة التي فيها تتلاقى مع الله وترى عجائبه وتلمس يمينه الحافظة وذراعه المخلصة وقلبه المفعم بالمحبة،
ينطلق لسانك بأناشيد التمجيد، فتصرخ مع موسى النبي قائلاً: "الرب قوتي ونشيدتي،
وقد صار لي خلاصي،
هذا إلهي فأمجده،

إله أبي فأرفعه". (خر ١٥: ٢).

فيصبح التمجيد إذن ليس واجباً أو فرضاً، وإنما مظهر من مظاهر التمتع بعشرة الرب والإحساس بنعمته.

ولا يقتصر تمجيدك على مجرد الترنيمة به وإنما ستجد نفسك مدفوعاً:
"التخبر بين الأمم بمجده". (مز ٩٦: ٣). حتى يصير للجميع شركة معك.
أخي الحبيب .. هل أنت حقاً بتكريس تام تمجد الله في جسدك وفي روحك؟
"مجدوا الله في أجسادكم وفي أرواحكم التي هي لله". (١كو ٦: ٢٠).

مشكلة الخطية

أولاً :- مفهوم الخطية
ثانياً :- مظهر الخطية
ثالثاً :- عوامل الخطية
رابعاً :- ثمار الخطية

لقد عرفت يا أخي أن خلقتك ووجودك هو عمل محبة الله من أجل إسعادك، وعرفت أيضا ما ينبغي يكون عليه موقفك إزاء هذا الحب الأبوي. والآن تستطيع بسهولة أن تتعرف على سر مشكلة الخطية التي "طرحتم كثيرين جرحى وكل قتلها أقوياء" (أم ٧: ٢٦).

أولاً:- مفهوم الخطية

الخطية في أبسط معانيها هي "الانفصال عن الله" فلسان حال الخطاة "يقولون لله ابعد عنا وبمعرفة طرقتك لا نسر" (أيوب ١٢: ١٤). ونتيجة للانفصال عن الله تصبح حياة الخاطئ:

ظلمة:

فإن الله نور كما قال رب المجد نفسه: "أنا هو نور العالم" (يو ٨: ١٢). ولهذا فكل من هو في صلة مع الله يصبح هو الآخر نوراً، كما قال السيد المسيح "أنتم نور العالم" (مت ٥: ١٤) ولكن إذ ينفصل الإنسان عن الله يبتعد عن النور فيصبح ظلمة - ولهذا فالكتاب المقدس يوضح بكل جلاء أن حياة الخطية هي ظلمة فيقول "لأنكم كنتم قبلاً ظلمة أما الآن فنور في الرب.. ولا تشتركوا في أعمال الظلمة غير المثمرة بل بالحرى وبخوها" (أف ٨: ١١).

ونستطيع أن نبسط هذا المفهوم بالمثل الآتي: يستمد القمر ضوءه من الشمس، إذ أنه جسم معتم في ذاته ولكن أشعة الشمس تنعكس على سطحه فيضيء، ولكن إذا توسطت الكرة الأرضية بين الشمس والقمر حدث كسوف للقمر فلا يضيء بل يصبح معتماً مظلماً. فالشمس في المثل تشير إلى الله شمس البر، والقمر المعتم هو أنا وأنت، وإذ نتعرض لأشعة النعمة الصادرة من مصدر النور نضيء بشكله المنير، ولكن عندما يقف العالم بينك وبين الله تظلم حياتك، هذه هي حياة الخطية. فهل يوجد ما يعطل وصول النعمة لحياتك. وهناك نتيجة أخرى للانفصال عن الله هي:-

تعدى:

الحياة مع الله هي حياة طاعة لوصاياه، الطاعة الناتجة عن المحبة وقد وضع ذلك السيد يسوع المسيح في قوله "إن أحبني أحد يحفظ كلامي ويحبه أبى وإليه نأتي وعنده نصنع منزلاً" (يو ١٤: ٢٣).

وإذا انفصل الإنسان عن الله، كان ذلك دليل عدم محبته ونتيجة لذلك لا يطيع وصاياه بل يتعداها، وفي هذا قال السيد المسيح "الذي لا يحبني لا يحفظ كلامي" (يو ١٤: ٢٤). وهذا هو التعدي الذي يقصده الكتاب المقدس عندما عرف الخطية قائلاً: "كل من يفعل الخطية يفعل التعدي، والخطية هي التعدي" (يو ٣: ٤). قف يا أخي وانظر هل تحب الله وتحفظ وصاياه، أم أنك تحب الشرور أكثر من محبة الله فتتعدى وصاياه لكي تشبع شهواتك!! ونتيجة ثالثة هي:-

موت:

الله هو الحياة كما قال عن نفسه "أنا هو الطريق والحق والحياة." (يو ١٤: ٩) وفيه الحياة "فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس" (يو ١: ٩). وكل من يتصل بالله له الحياة." (يو ٥: ١٢). بل إن مجيء السيد المسيح إلينا هو لكي يعطينا هذه الحياة "أما أنا فقد أثبت لتكون لهم حياة وليكون لهم أفضل." (يو ١٠: ١٠). ولكن إذ ينفصل الإنسان عن الله ينفصل عن مصدر الحياة فيصبح ميتاً، هذا ما وضعه السيد المسيح في مثل الابن الضال في قول الأب لعبيده: "ابني هذا كان ميتاً فعاش" (لو ١٥: ٢٤). فكان ميتاً بانفصاله عن أبيه وعندما عاد إلى أحضانه نال الحياة مرة أخرى. وهذا هو عين ما قاله بولس الرسول عن الخاطئ "ونحن أموات بالخطايا أحيانا مع المسيح. بالنعمة أنتم مخلصون." (أف ٢: ٥).

عزيزي هل أنت متصل بمصدر الحياة لتستمد الحياة منه أم أنك منفصل عنه وليس فيك الحياة. أنا أخشى يا أخي أن ينطبق عليك القول "أن لك اسماً أنك حي وأنت ميت."!! (رو ١: ٣).

ثانياً:- مظهر الخطية

عندما ينفصل الإنسان عن الله يتغير موقفه تماماً من الله. فبعد أن كان يتمتع بعشرته تصبح لذته في شهوته، وبدلاً من شكر الله على نعمته يجحد بركاته، وعوض أن يمجّد الله في محبته يمجّد ذاته. وعنى يا أخي أفصل أمامك الأمر لترى موطن خطيتك:

١ - التمتع بالشهوات:

يقول سليمان الحكيم "نفس الشرير تشتهي الشر" (أم ١٠: ٣١). ويضيف بطرس الرسول فيقول "يذهبون وراء الجسد في شهوة النجاسة. يحسبون تنعم يوم لذة. لهم عيون مملوءة فسقاً لا تكف عن الخطية." (٢بط ٢: ١٠). فانظر يا أخي وكن صريحاً مع نفسك، هل تتمتع بعشرة الرب حقيقة أم أن متعتك في شهواتك؟!.

فإذا وقفت لتصلي هل تشعر بالمتعة والاشتياق لشخص الحبيب وتتلذذ بالجلوس عند قدميه؟ أم أنك تعتبر أن الصلاة عبء ثقيل، فتتأعب وتتململ وتتعجل الوقت وتسرع في صلاتك حتى تنتهي من هذا الواجب المتعب..؟ بينما إذا جلست مع أصدقاء الخطية في المقهى أو في أماكن اللهو والخلاعة طاب لكم الحديث وطال حتى منتصف الليل دون ملل أو قلق!!.

وإذا جلست لتقرأ الكتاب المقدس هل تشعر بلذة ومتعة لأنك تقرأ كلمة الله وتصغي إلى رسالته لك وتستكشف أخبار السماء؟ أم أنك تؤدي فرساً عسراً فنقرأ بملل وضيق؟. بينما نراك في شوق والتهاب تلتهم جرائد الصباح والمجلات الأسبوعية والروايات الدنسة.. وأسفاه!!.

وعندما تحضر القداسات الإلهية والاجتماعات الروحية هل تشعر بالبهجة والفرح لأنك في محضر رب الجنود؟ أم أنك تتأفف إذا تأخرت الكنيسة عن ميعاد الانصراف؟ وربما عبرت عن استيائك ببعض الكلمات الجارحة والانتقادات اللاذعة.. بينما إذا ذهبت إلى السينما أو جلست أمام التلفزيون لا تشعر بمرور الوقت، وعندما يقترب الفيلم من النهاية تتأسف في قلبك على أنه انتهى هكذا سريعاً. عجباً يا أخي! ماذا تقول عن هذا القلب الذي لا يتمتع إلا بالشهوات ولا توجد إشتياقات له للتمتع بعشرة الرب! أنها الخطية التي فصلتك عن الله فما عدت ترى فيه بهجة أو جمالاً بقدر ما ترى في ملذاتك وشهواتك.

حبيبي إن كنت لا تتمتع بعشرة الرب هنا فكيف تقضى الأبدية في محضره ففي الأبدية سوف لا نجد سوى الله موضوع البهجة والسعادة اللانهائية، فإن كانت متعتك على الأرض فيه وأشتياقات قلبك مركزة في أن تراه كما هو فسوف تسعد بتحقيق رغبتك وهذا هو النعيم بعينه. "هذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته" (يو ١٧: ٣).

ولكن إن كنت في حالة نفور من الله هنا على الأرض فإن أبديتك ستكون في غاية الكآبة والبؤس لأنك سوف لا تجد لذة بمعاشرة الرب وهذا هو الجحيم بعينه.

٢- جدد البركات:

إن الإنسان الذي يشعر بمحبة الرب وبركاته لا يكف عن أن يشكره على إحساناته، ولكن إذ ينفصل عن الرب لا يرى أن الله هو مصدر الخير الذي يعيش فيه. فبالرغم من عدم أمانتنا إلا أن الله يظل أميناً. مثل هذا الإنسان المبتعد عن الله يرجع مصدر النعمة التي يرفل فيها إلى مهارته وذكائه ومجهوداته.. آه يا صاحب القلب الجحود ألا تشكر من أوجدك من العدم؟ ألا تذكر فضل من وهبك الصحة والأولاد والمال وسيج حولك إلى هذه الساعة؟ إن من أعظم بركات الرب عليك يا أخي أنه تمهل عليك طوال سني جهلك وشرك ليتيح لك فرصة للتوبة والرجوع إليه: "أم تستهين بغنى لطفه وإمهاله وطول أناته غير عالم أن لطف الله إنما يقتادك إلى التوبة ولكنك من أجل فساوتك وقلبك غير التائب تذخر لنفسك غضباً في يوم الغضب واستعلان دينونة الله العادلة" (رو ٢: ٤).

أخي هل تشكر الله على كل حال ومن أجل كل حال وفي كل حال لأنه سترك وأعانك وحفظك وقبلك إليه وأشفق عليك وعضدك وأتى بك إلى هذه الساعة؟! أم ينطبق عليك قول الرسول: "لأن الناس يكونون معجبين بأنفسهم غير شاكرين" (٢: ٣).

٣- تمجيد الذات:

عندما ينفصل الإنسان عن الله ينسى بل يتناسى الله نهائياً ويبدأ في تأليه نفسه فأينما وجد حاول أن يظهر عظمة ذاته، وإذا تكلم لمست في أحاديثه الكبرياء والانتفاخ سواء بالعلم والمعرفة، أو المال والثروة، أو الصحة والقوة .. الخ.

ولكن اعلم يا من تنتفخ وتنتشامخ وترتفع إلى فوق، اعلم أن الله يتمهل عليك إلى حين، تاركا لك فرصة للتوبة، ولكن سيأتي اليوم الذي فيه يسحق كبرياءك ويخزي علمك ويذل قوتك.

تأمل يا أخي ما حدث مع هيرودس الملك الذي لبس الحلة الملوكية وجلس على كرسي الملك وابتدأ يكلم الشعب قائلاً: "هذا صوت إله لا صوت إنسان" وسر الملك بهذا الهتاف.. ففي الحال ضربه ملاك الرب لأنه لم يعط المجد لله فصار يأكله الدود ومات" (أع ١٢: ٢١-٢٣).

وتأمل أيضاً يا أخي ما دونه الكتاب المقدس عن نبوخذ نصر الملك في سفر دانيال الإصحاح الرابع. بعد أن بنى مدينة بابل العظيمة "كان يتمشى على قصر مملكة بابل وأجاب الملك فقال: أليست هذه بابل العظيمة التي بنيتها لبني الملك بقوة اقتداري ولجلال مجدي. والكلمة بعد في فم الملك وقع صوت من السماء قائلاً: لك يقولون يا نبوخذ نصر الملك إن الملك قد زال عنك، ويطردونك من بين الناس، وتكون سكنائك مع حيوان البر ويطعمونك العشب كالثيران فتمضى عليك سبعة أزمنة حتى تعلم أن العلي متسلط في مملكة الناس وأنه يعطيها لمن يشاء. في تلك الساعة تم الأمر على نبوخذ نصر فطرد من بين الناس وأكل العشب كالثيران وابتل جسمه بندى السماء حتى طال شعره مثل النسور وأظافره مثل الطيور".

هذا هو ما حدث لنبوخذ نصر عندما تكبر وتنتشامخ. ولكن تأمل ما حدث له عندما تصاغر وتواضع إذ يقول "وعند انتهاء الأيام أنا نبوخذ نصر رفعت عيني إلى السماء فرجع إلى عقلي وباركت العلي وسبحت وحمدت الحي إلى الأبد الذي سلطانه سلطان أبدي وملكوته إلى دور فدور وحسبت جميع سكان الأرض كلا شيء وهو يفعل كما يشاء في جند السماء وسكان الأرض. ولا يوجد من يمنع يده أو يقول له ماذا تفعل. في ذلك الوقت رجع إلى عقلي وعاد إلى جلال مملكتي ومجدي وبهائي، وطلبتني مشيرى وعظمائي وثبتت على مملكتي. وازدادت لي عظمة كثيرة." فالآن أنا نبوخذ نصر أسبح وأعظم وأحمد ملك السماء الذي كل أعماله حق وطرقه عدل ومن يسلك بالكبرياء فهو قادر أن يذله" (د: ٤).

فماذا يا أخانا ؟ هل تتفخر وتتكبر من أجل مركزك أو علمك أو مالك أو نسبك...؟
اذكر قول هذا المختبر نبوخذ نصر. "من يسلك بالكبرياء فهو قادر أن يذله" (د ٣٧١:).
وأخيراً أضع أمامك قول بطرس الرسول "تسربلوا بالتواضع لأن الله يقاوم المستكبرين وأما المتواضعون فيعطيههم نعمة فتواضعوا تحت يد الله القوية لكي يرفعكم في حينه" (بط ٥: ٥، ٦).

صلاة:-

اعطني يارب أن أعرف من أنا. وما هي خطيتي. حتى أتواضع أمامك ولا أتكبر بشيء هو أصلاً من عطايك التي وهبتها لي فضلاً، فكيف أفخر بها أمامك. ارحمني واصفح عني.

ثالثاً:- عوامل الخطية

توجد عدة عوامل تسبب السقوط في الخطية منها:

١- الطبيعة الوراثية:

تلك هي الطبيعة الفاسدة التي ورثناها عن أبونا الأولين آدم وحواء، الطبيعة الملوثة بجرثومة الخطية والإثم "هاأنذا بالإثم صورت وبالخطية حبلت بي أمي" (مز ٥١: ٥).
هذه الطبيعة الوراثية هي قوة ضغط لا يمكن للإنسان أن يضبطها إلا بمعونة إلهية. وعن هذه الطبيعة كتب بولس الرسول قائلاً: "أرى ناموساً آخر في أعضائي يحارب ناموس ذهني ويسبيني إلى ناموس الخطية الكائن في أعضائي" (رو ٧: ٢٣).

ألا تشعر بتأثير هذا العامل في حياتك، فترى نفسك بالطبيعة ميلاً للخطية؟ في الواقع يا أخي إن هذا العامل هو أقوى العوامل التي تجرف الإنسان إلى نيار الإثم ... هذا العامل هو الذي دعي بولس الرسول أن يطلق صرخته المدوية "ويحي أنا الإنسان الشقي. من ينقذني من جسد هذا الموت"؟! (رو ٧: ٢٤).
لا تخف يا أخي من جبروت هذا العامل فقد وجد بولس الرسول القوة التي أعتقته من سلطانه وأعلنها لنا بقوله "ناموس روح الحياة في المسيح يسوع قد اعتقني من ناموس الخطية والموت" (رو ٨: ٢).

ويقصد بناموس روح الحياة "الروح القدس" فالروح القدس قوة تهيمن على ميول الطبيعة القديمة وتضبطها وتحرر من سلطانه.

فان كنت مهزوماً من سلطان طبيعتك القديمة سلم قيادة حياتك للروح القدس، روح القوة ولكن دائم الخضوع للسلطة، والوجود في حضرته وتحت مظلة بروح الصلاة الدائمة والالتصاق به فكرياً وقلبياً وعملياً. فيعتقك من ناموس الخطية والموت.

٢- البعد عن النعمة الإلهية:

ألا ترى يا أخي أنك كلما اقتربت من مصدر النعمة كلما شعرت بالراحة والسلام والغلبة؟ ففي اللحظة التي تبتعد فيها عن الله تسقط فريسة للخصم الزائر كأسد جائل ملتصق من بيتلعه.

تأمل يا أخي _ ويا أختي ما حدث لدينة ابنة أبنينا يعقوب يقول الكتاب "وخرجت دينة لتتظر بنات الأرض فرآها شكيم ابن حمور رئيس الأرض وأخذها واضطجع معها وأذلها" (تك ٢٤). سقطت دينة في يد من أذلها عندما تركت خيام أبيها.. هكذا يا أخي حينما تترك خيام أبيك، خيام النعمة، لا بد وأن تسقط في يد رئيس سلطان الهواء الذي بذلك ويمرر حياتك. وما أجمل تصوير القديس أغسطينوس لهذا الأمر عندما قال: "لأنك إذا ما ابتعدت عن معرفة العلي بدون قوة تدعمك سقطت. لأن إبليس وملأئكته ينصبون فخاخهم كما يفعل الصيادون. والذين

يسلكون في المسيح تبتعد خطواتهم عن تلك الفخاخ، لأن إبليس لا يجرؤ على بسط شبكته في المسيح، فهو يقيمها على حافة الطريق لا في الطريق".

أتريد أن تتجو من فخاخ إبليس؟ اقترب إلى الله وامسك به فهو القائل "تعلق بي أنجيه. أرعه لأنه عرف اسمي يدعوني فأستجيب له. معه أنا في الضيق. أنقذه وأمجد. من طول الأيام أشبعه وأريه خلاصي" (مز ٩١: ١٤-١٦).

٣- القرب من مجال الخطية:

وثمة عامل آخر من عوامل السقوط في الإثم هو القرب من مجال وتأثير الخطية، فمن ذا الذي يقترب من الحية وينجو من سمها؟ أو يمشى إنسان على الجمر ولا تكتوي رجلاه؟ (أم ٦: ٢٨).

تأمل يا أخي سر سقوط أمنا حواء، فقد نهاها الرب عن الأكل من الشجرة، وقد حرصت فعلا على هذه الوصية، وذات يوم سولت لها نفسها أن تقترب إلى الشجرة المنهي عنها، فإذا بالحية تنتهز هذه الفرصة لتوجه لدغتها المميّنة إلى أمنا المسكينة. لاحظ يا أخي تعبير الكتاب "فراّت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل..." (تك ٣: ٦). وهذا يدل على أن حواء كانت قريبة من الشجرة فكان هذا سر سقوطها.

أو ليس هذا هو سر سقوط شمشون الجبار؟ لقد أقترّب من مجال الخطية إذ ذهب إلى وادي سورك ودخل بيت دليّة واستسلم لها فأنامته على ركبتيها ودعت رجالا وحلقت سبع خصل رأسه وابتدأت بإذلاله وفارقه قوته. (قض. ١٦).

عزيزي القارئ: أخشى أن تكون أهوجاً كما كان شمشون! فترتاد أماكن الدنس وتتردد على دور الملاهي والسينما والتلفزيون طائفاً أنك قوى الإرادة، مدعياً أن هذه الأمور لا تؤثر فيك، أخشى أن تكون لك علاقات منحرفة مدعياً أنها علاقات شريفة. أخطر من النهاية تعيسة! لأن الخطية لذیذة في بدايتها، وطريقها غامض في أوله تخدعك ثم تقتلك فقد خدعت بولس الرسول من قبلك فقال "لأن الخطية.. خدعتني وقتلتني". (رو ٧: ١١). أخي إنها ساعة لتستيقظ "فاهرب لحياتك.. ولا تقف في كل الدائرة لئلا تهلك" (تك ١٩: ١٧).

اقطع صلّتك بالخطية، لا تذهب إلى الأماكن التي تعثرك، ولا ترتبط بالصدقات الشريرة، وابتعد عن كل ما يؤدي بك إلى عبودية الخطية.

رابعاً:- ثمار الخطية

الخطية شجرة مرة ثمارها افسنتين، وربما تكون قد تذوقت مرارتها وإليك بعض ثمارها:

١- الخزي والعار:

يقول سليمان الحكيم "البر يرفع شأن الأمة وعار الشعوب الخطية" (أم ١٤: ٣٤).

عندما تعرى أبونا آدم من ثوب النعمة فر هاربا والخزي يغطي وجهه إذ سمع صوت الرب الإله ماشيا في الجنة وتوارى بين الأشجار ومن هناك رفع صوته الأسيف "سمعت صوتك في الجنة فخشيت لأنني عريان فاختبأت" (تك ٣: ١٠).

وهو ذا داود النبي الملك المكرم ينكس الرأس مخزياً أمام ناثان النبي الذي كشف له خطيته الشنعاء مع امرأة أوريا الحثي..

أعرف إنساناً كان غنياً يملك الأطنان والعمارات وكان يشغل منصباً محترماً في الوظائف الحكومية، وإذا استعبد للخطية من خمر وزنا وقمار وسجائر ومخدرات باع كل ما يملك، بل وصل به الحال أن فصل من وظيفة، وأدى به الأمر إلى خلل في قواه العقلية وهذا الآن يدور في الشوارع وعلى كتفه "بطانية" مهلهلة راية العار وعلامة الخزي!!.

أخي هل غطى الخزي وجهك وهل كستك الخطية بالعار؟ تستطيع الآن يا أخي أن تكتسي بثوب البر ورداء الخلاص.

٢- عدم السلام:

يقول الكتاب "لا سلام قال إلهي للأشرار" (اش ٤٨: ٢٢).

(أ) لا سلام مع نفسك:

لهذا أنت في قلق داخلي، والأحزان والهموم تملأ حياتك، لا تبحث عن الراحة في الخمر، ولا تخدع نفسك باللهو والمكيفات ظاناً أن هذه الوسائل تعطيك سلاماً.. ألا تعلم يا أخي أن سبب تعاستك هو الخطية.. فلا سلام لك طالما أنت في أرض الخطية.. فان أردت أن تتمتع بالراحة والسلام اترك كورة الخنازير...

(ب) لا سلام مع الناس:

صدقني يا أخي لو بحثنا عن سبب الانشقاقات والتحزبات والمناوشات بينك وبين الآخرين لوجدت السر كامناً في الخطية. فالسلام مفقود لأن الله في القلب غير موجود، إذ أنه لا يوجد في قلب ملئ بالخطية.

فان كنت يا أخي لا تشعر بالسلام مع المحيطين بك سواء في البيت أو العمل فأبحث عن السبب، ربما تكون محباً لذاتك، محباً للظهور، متكبراً فتصطدم مع الآخرين، أو عينيك شريرة وقلبك دنس فلا تجد راحة ولا سلام. إن أردت أن يكون بينك وبين الناس سلام انزع الخطية من قلبك وأصغى إلى قول الوحي: "إذا أرضت الرب طرق إنسان جعل أعداءه أيضاً يسالمونه" (أم ١٦: ٧).

(ج) لا سلام مع الله:

حقيقة يا أخي لا تستطيع أن تتمتع بالإسلام الكامل إلا في وجودك مع الله ولكنك تحب الخطية أكثر من الله فتفصلك عن مصدر السلام فيئن قلب متوجعاً باحثاً عن السلام في غير موضعه وهيهات أن تجده..

عزيزي اقترب إلى الرب يقترب إليك واسمعه يقول لك "تعالوا إلى يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال وأنا أريحكم" (مت ١١: ٢٨). هو مستعد أن يترك لك خطاياك ويبررك من كل إثم فيصير لك معه سلام "إذ قد تبررنا بالإيمان لنا سلام مع الله برنا يسوع المسيح" (رو ٥: ١).

٣- الهلاك الأبدي:

يوضح لنا بولس الرسول هذه الثمرة التي يجنيها الأشرار من الخطية بقوله: "أجرة الخطية هي موت" (رو ٦: ٢٣). ويضيف قائلاً: "في نار لهيب معطياً نعمة للذين لا يعرفون الله والذين لا يطيعون إنجيل ربنا يسوع المسيح. الذين سيعاقبون بهلاك أبدي من وجه الرب." (٢ تي ١: ٩، ١٠).

ربما تستهين يا أخي بهذه النهاية التعيسة، وفي موجة من الاستهتار تستسلم لهذا الشقاء الأبدي... ولكن من قلب مفعم بمحبتك أرجوك أن تفتح عينيك لتبصر حالة الغنى التعيس التي صورها رب المجد بقوله:

رجل غنى قضى أيام حياته في تنعمات وتلذذات الخطية، ما أشفقت عيناه يوماً على لعازر المسكين المضروب بالقروح. وإذا تنتهي حياته في الجسد يلقى في أعماق الجحيم ومن هناك: "رفع عينيه في الجحيم وهو في العذاب ورأى إبراهيم من بعيد ولعازر في حضنه. فنادى وقال يا أبى ارحمني وارسل لعازر ليبل طرف أصبعه بماء

ويبرد لساني لأنني معذب في هذا اللهب. فقال إبراهيم يا ابني اذكر أنك استوفيت خيراتك في حياتك وكذلك لعازر البلاء. والآن هو يتعزى وأنت تتعذب" (لو ١٦: ١٩-٣١).

تأمل يا أخي هذا الغنى وهو في الجحيم معذباً من اللهب وليس من يبرد لسانه. آه كم يتمنى هذا التبعس وأمثاله ممن يعانون من لهيب البحيرة المتقدة بنار والكبريت، كم يتمنون أن تتاح لهم فرصة ولو دقيقة واحدة ليعودوا إلى أرضنا ليتوبوا في الرماد والمسوح حتى يخلصوا من عذاب جهنم. ولكن هيهات لمن في الخطية قد مات أن ينجو من العذاب.

صدقني يا أخي إن سكان الجحيم يحسدونك على هذه الفرصة المتاحة لك للتوب. فلماذا يا مبارك "تستهين بغنى لطف الله وإمهاله وطول أناته غير عالم أن لطف الله إنما يقتادك إلى التوبة، ولكن من أجل قساوتك وقلبك غير التائب تذخر لنفسك الغضب وإستعلان دينونة الله العادلة." (رو ٢: ٤).

هذه يا أخي الخطية في مفهومها كإفصال عن الله، وفي مظاهرها المتعددة من تلذذ بالشهوات وتمجيد للذات ... ، وها هي عواملها التي تؤدي للسقوط: من طبيعة فاسدة، وابتعاد عن الله، واقتراب من مجالات الشر. أما ثمارها المرة فهي الخزي والعار، وعدم السلام، والهلاك الأبدي.

صلاة:-

إلهي لا تسمح أ، أنفصل عنك وأسقط في الخطية وأحرم من نعمة الوجود معك. لا تسمح لنفسي أن تهلك بل خلص نفسي من أجل حبك.

تدبير الخلاص

أولاً :- إشكال خطير .
ثانياً :- حل وحيد .
ثالثاً :- خطة حكيمة .

تقديم

هل من ضرورة للخلاص؟

لو لم يكن الله محباً، ما كان هناك ضرورة للخلاص. إذ أن حكمه قد صدر على الإنسان بالموت: "يوم تأكل منها موتاً تموت". فكان من الممكن أن يخلق الله جنساً آخر عوض ذلك المائت تاركاً إياه يقاسى حمم جهنم الأبدية.

ولكن الله في محبته الفائقة للإنسان أشفق عليه، ولم يرتض أن يتركه يعاني أوجاع الموت، بل أراد أن ينقذه من لهيب الجحيم، فدبر له طريق الخلاص. وهذا هو التدبير الذي كشفه الروح لبولس الرسول فقال: "إذ عرفنا بسر مشيئته حسب مسرته التي قصدتها في نفسه لتدبير ملء الأزمنة ليجمع كل شئ في المسيح ما في السموات وما على الأرض في ذلك الذي فيه أيضاً نلنا نصيباً معينين سابقاً حسب قصد الذي يعمل كل شئ حسب رأى مشيئته" (أف ١: ٩-١١).

والواقع أن تدبير الخلاص يصطدم بإشكال خطير ويستلزم حلاً عادلاً فكانت خطة الله الحكيمة للخلاص.

أولاً: - إشكال خطير

ينشأ هذا الإشكال بسبب وجود صفتين متميزتين في ذات الله، هما صفة العدل وصفة الرحمة، والاحتياج إلى للتوفيق بينهما بشأن خلاص الإنسان. فعندما نبحث هذا الإشكال بخصوص هاتين الصفتين: العدل والرحمة.

١ - حكم العدل:

عندما خلق الله آدم أمره أن لا يأكل من شجرة معرفة الخير والشر قائلاً له "يوم تأكل منها موتاً تموت" (تك ٢: ١٧).

ولكنه أكل فاستحق الموت وفقاً لعدل الله "فإنه قاض عادل" (مز ٧: ١١). ويشمل هذا الحكم:

(أ) موت جسدي:

فبعد أن سقط آدم في الخطية صار حكم الله عليه "وتعود إلى الأرض التي أخذت منها لأنك تراب وإلى التراب تعود" (تك ٣: ١٩). ولهذا فقد طرد من الجنة حتى لا "يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً ويأكل ويحيا إلى الأبد" (تك ٣: ٢٢).

(ب) موت أدبي:

كان آدم في الجنة سيداً مكرماً "متسلطاً على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى كل حيوان يدب على الأرض" (تك ١: ٢٨). ولكن بعد أن أخطأ انتزعت السلطة من يده وأصبح مساوياً لما كان قبلاً صاحب سيادة عليهم. (تك ٣: ١٥). وبعد الكرامة أصبح في هوان "يعمل الأرض وبالتعب يأكل عشب الحقل" (تك ٣: ١٨، ١٩، ٣٠: ١٧). وهكذا ورثته الخطية العار والخزي "عار الشعوب الخطية" (أم ٤: ١٤).

(ج) موت أبدي:

إن عقوبة الخطية لم تقتصر على الموت الجسدي والأدبي فحسب وإنما شملت أيضاً الموت الأبدي في نار جهنم. وقد وضح رب المجد مصير الأشرار الأبدي بقوله "اذهبوا عنى يا ملاعين إلى النار الأبدية المعدة لإبليس وملأكته" (مت ٢٥: ٤١).

هذا الحكم المثلث لم يكن قاصراً على آدم فحسب بل امتد إلى جميع الجنس البشري، إذ قد ورثوا منه جرثومة الخطية التي سرت في دمائهم فأوجدت فيهم ميلاً طبيعياً للخطية. وقد وضح هذه الحقيقة القديس بولس الرسول بقوله "بإنسان واحد (وهو آدم) دخلت الخطية إلى العالم، وبالخطية (صار) الموت. وهكذا اجتاز الموت إلى جميع الناس إذ اخطأ الجميع" (رو ٥: ١٢). هذا هو موقف الإنسان أمام عدل الله. ولنتأمل الآن الصفة الأخرى من صفات الله وهي:

٢- عمل الرحمة:

فقد قال الكتاب "الرب إله رحيم رؤوف ... غافر الإثم والمعصية والخطية" (خر ٣٤: ٦). وفي رحمته لا يرتضى موت الإنسان إذ قال "هل مسرة أسر بموت الشرير ألا يرجوعه عن طريقه فيحيا" (حز ١٨: ٢٣). من هنا تنشأ المشكلة، فإن نفذ الله عدله في الإنسان وعاقبه بالموت، فأين عمل الرحمة؟! وإن عامله بالرحمة وغفر له فأين حكم العدل؟! حقيقة يا أخي إنها مشكلة، وليس لها سوى حل وحيد وهو موضوع حديثنا في النقطة التالية.

ثانياً: - الحل الوحيد

لكي يمكن للرحمة أن تسود لا بد للعدل أن يأخذ مجراه. وهنا ينشأ الحل الوحيد لهذه المشكلة بتدبير (فدية) تتحمل حكم العدل عوضاً عن الإنسان الذي ينعم بعمل الرحمة. ولكن لا بد للفادي أن تتوفر فيه شروط معينة حتى يوفي مطالب العدل الإلهي، فيجب أن يكون الفادي.

١- غير محدود :

فالخطية تقدر وفقاً لشخصية المخطئ إليه، وتقاس عقوبتها طبقاً لمركزه، وتتناسب كفارتها مع قيمته. فمثلاً: إذا أخطأت في حق زميل لك، كانت خطيتك محدودة ولا تحتاج لأكثر من اعتذار. أما إذا أخطأت في حق الحاكم فإن خطيتك تستحق عقوبة شديدة، ولا يكفي الاعتذار عنها ليعفى عنك. أما خطية الإنسان ضد الله، فهي خطية غير محدودة. لأن الله غير محدود. ولهذا فقد استحققت هذه الخطية عقوبة غير محدودة. فلا بد أن يكون الفادي الذي يكفر عنها، غير محدود.

٢- إنساناً:

إذ يجب أن يكون الفادي من جنس المفدى، ومساوياً له في القيمة على الأقل. فلا يصح أن يفدى الإنسان ملاك لأنه ليس من جنسه وكذلك الحيوان لا يصلح إذ أنه ليس من جنسه أيضاً ولا من قيمته.

٣- طاهراً:

فإن كان الفادي خاطئاً فإنه يموت بخطية نفسه، ولا يصلح لفداء غيره. إذن يجب أن يكون طاهراً. فمن ذا الذي تكتمل فيه هذه الشروط؟

هل ملاك يمكن أن تتوفر فيه هذه الشروط؟

كلا. فالملاك مخلوق محدود وليس إنساناً.

هل حيوان يمكن أن تتوفر فيه هذه الشروط؟

كلا. فالحيوان مخلوق محدود وليس إنساناً.

هل نبي يمكن أن تتوفر فيه هذه الشروط؟

كلا. فالنبي وإن كان إنساناً فهو محدود وغير طاهر.

لا يوجد سوى حل وحيد لفداء الإنسان، وهو: أن يتجسد الله (غير المحدود) في جسد (إنسان) ويولد من عذراء ليكون (بلا خطية) وهذا ما تم فعلاً.

فالمسيح هو الله غير المحدود "عظيم هو سر التقوى الله ظهر في الجسد" (١٦:٣). وهو الطاهر الوحيد "لم يفعل خطية ولا وجد في فمه مكر" (١بط ٢:٢٢).

فيسوع هذا الإله المتجسد قدم نفسه فدية عن البشر إذ تحمل هو حكم الموت ووفى عدل الله، حتى يخلصنا نحن برحمته "متبررين مجاناً بنعمته بالفداء الذي بيسوع المسيح الذي قدمه الله كفارة بالإيمان بدمه لإظهار بره من أجل الصفح عن الخطايا السالفة بإمهال الله لإظهار بره في الزمن الحاضر ليكون باراً ويبرر من هو من الإيمان بيسوع" (رو ٣:٢٤-٢٦)

ثالثاً: - خطة حكيمة

إن عملية تجسيد الله وارتضائه بالصلب أمر لا يمكن للإنسان أن يقبله بسهولة لأنه يفوق إدراك العقول. وما العهد القديم بكل ما فيه سوى تمهيد البشرية لقبول التجسد والفداء، إذ قد أعلن الرب ذلك في وعود صريحة، ورموز واضحة. أقتصر منها على ذكر ما يلي:

١- وعود الفداء:

وتتنسق هذه الوعود في نبوات صريحة أشار بها الروح في العهد القديم إلى موت المسيح الكفاري ليخلص البشرية نذكر منها:

(أ) النبوة لنسل المرأة:

بعد سقوط آدم وحواء بغواية الحية أصدر الرب حكمه قائلاً للحية "أضع عداوة بينك وبين نسلك ونسلها، وهو يسحق رأسك وأنت تسحق عقبه" (تك ٣:١٥). ففي هذا الحديث نبوة صريحة عن الفداء ففي قوله "هو يسحق رأسك" إشارة واضحة عن هزيمة الشيطان في الصليب إذ يقول الرسول "وقد رفعه من الوسط مسمراً إياه بالصليب. إذ جرد الריاسات والسلطين أشهرهم جهاراً ظافراً بهم فيه" (كو ٢:١٥). وفي قوله "أنت تسحقين عقبه" إشارة إلى موت المسيح على الصليب. فعندما مد الشيطان رأسه ليسحق عقب المسيح داس المسيح على رأسه وسحقها.

(ب) نبوة اليهو:

وهو أحد أصحاب أيوب الذين جاءوا ليعزوه، فتنبأ عن فداء المسيح للإنسان إذ قال "قد أخطأت وعوجت المستقيم ولم أجاز عليه. فدى نفسي من العبور إلى الحفرة، فترى حياتي النور" (إى ٢٨، ٣٣: ٢٧). ففي هذا القول نبوة صريحة عن عمل الفداء، فالإنسان الذي أخطأ وعوج المستقيم لم يجاز عليه. أي لم ينفذ فيه حكم الموت الذي هو قصاص الخطية. (رو ٦: ٢٣).

(ج) نبوة داود:

لقد تنبأ داود النبي كثيراً عن المسيح وموته الكفاري ولكنى سأقتصر فقط على ما جاء من نبوات في مزمور ٢٢، ومنها:

- * صراخ السيد المسيح على الصليب "إلهي، إلهي لماذا تركتني" (مز ٢٢: ١).
 - * الاستهزاء به "الذين يرونني يستهزئون بي، يفرغون الشفاه، وينغضون الرأس قالين: اتكل على الرب فلينجح لينقذه لأنه سر به. (مز ٢٢، ٨: ٧).
 - * تسمير يديه ورجليه: ثقبوا يدي ورجلي وأحصى كل عظامي" (مز ١٧، ٢٢: ١٦).
 - * تقسيم ثيابه: "اقتسموا ثيابي وعلى لباسي يقتربون" (مز ٢٢: ١٨).
 - * موته: "يبست مثل شقفة ولصق لساني بحنكي وإلى تراب الموت تضعني" (مز ٢٢: ١٥).
- وفي المزمور أيضاً نبوات عن قيامته والتبشير باسمه..

(د) نبوات أشعيا:

ونقتصر أيضاً على بعض النبوات في الإصحاح ٥٣ ففيه يتكلم عن نيابة المسيح عنا في تحمل:
الحزن : أحزاننا حملها وأوجاعنا تحملها. (اش ٥٣: ٤).
التأديب: مجروح لأجل معاصينا مسحوق لأجل آثامنا تأديب سلامنا عليه وبحبره شفيانا. (اش ٥٣: ٥).
الإثم: كلنا كغنم ضللنا ملنا كل واحد إلى طريقه والرب وضع عليه إثم جميعنا. (اش ٥٣: ٦).
عبدى البار بمعرفته يبرر كثيرين وآثامهم هو يحملها. (اش ٥٣: ١١).
جعل نفسه ذبيحة إثم. (اش ٥٣: ١٠).
الذنب: ضرب من أجل ذنب شعبي. (اش ٥٣: ٨).
الخطية: هو حمل خطية كثيرين وشفع في المذنبين. (اش ٥٣: ١٢).
الصلب: ظلم أما هو فتذلل ولم يفتح فاه. كشاة تساق إلى الذبح وكنعجة صامتة أمام جازيها فلم يفتح فاه. (اش ٥٣: ٧).
الموت والقبر: جعل مع الأشرار قبره ومع غنى عند موته. (اش ٥٣: ٧).

(هـ) نبوة دانيال:

ويحدد دانيال أموراً عجيبة عن مجيء الفادي بقوله: "سبعون أسبوعاً قضيت على شعبي وعلى مدينتك المقدسة لتكمل المعصية وتتميم الخطايا ولكفارة الإثم وليؤتى بالبر الأيدي ولختم الرؤيا والنبوة ولمسح قدوس القديسين. فاعلم وافهم أنه من خروج الأمر لتجديد أورشليم وبنائها إلى المسيح الرئيس سبعة أسابيع واثنان وستون أسبوعاً يعود ويبنى سوق وخليج في ضيق الأزمنة وبعد اثنين وستين أسبوعاً يقطع المسيح وليس له وشعب رئيس آت يخرب المدينة والقدس وانتهأؤه بغمارة وإلى النهاية حرب وخراب قضى به.. الخ" (دا. ٩: ٢٤-٢٧). وفي هذا الكلام إشارة واضحة إلى مجيء المسيح وفدائه للبشرية حتى يسود البر الأبدي

(و) نبوة هوشع:

إذ يقول بصريح العبارة موضحاً الفداء: "من يد الهاوية أفيدهم، من الموت أخلصهم. أين أوباؤك يا موت. أين غلبتك يا هاوية" (هو ١٣: ١٤).
هذه كلها نبوات صريحة وإشارات واضحة تمهيدية حتى إذا جاء المسيح وقبل الموت فداء للبشرية تكون العقول قد مهدت لقبول ذلك.
ولننتقل الآن لنرى إشارات عملية أيضاً مهد بها الرب للفداء وهي:

٢- رموز الفداء:

كثيرة هي الرموز التي تشير إلى الفداء نقتصر على بعض منها:

(أ) ذبيحة آدم:

يقول الكتاب "وصنع الرب الإله لآدم وامرأته أقمصه من جلد وألبسهما" (تك ٣: ٢١). ولاحظ يا أخي قوله (صنع) ولم يقل (خلق) فلا بد وأن يكون هناك ذبيحة دموية، ثم أخذ جلدھا وصنع منه أقمصه لسترهما. أليس هذا هو أول رمز لذبيحة المسيح الذي صنع الرب من ثوب بره أقمصه لستر عيوبنا "ألبسني ثياب الخلاص، كساني رداء البر" (أش ٦١: ١٠).

(ب) ذبيحة هابيل:

قدم قايين قربانا للرب من أثمار الأرض (تك ٤: ٣). وقدم هابيل من أكار غنمه تك ٤: ٤). فسر الرب بذبيحة هابيل، لأنها ترمز إلى الفداء إذ أنه مكتوب "بدون سفك دم لا تحصل مغفرة" (عب ٩: ٢٢). أما مقدمة قايين فقد رفضت لأنها ليست ذبيحة دموية.

(ج) ذبيحة إسحاق:

لقد أمر الرب إبراهيم بأن يقدم ابنه اسحق محرقة، وعندما هم أن يذبحه، إذ بالرب يقول له "لا تمد يدك إلى الغلام ولا تفعل به شيئاً فرفع إبراهيم عينيه ونظر وإذا كبش وراءه ممسكاً في الغابة بقرنيه، فذهب إبراهيم وأخذ الكبش وأصعده محرقة عوضاً عن ابنه" (تك ٢٢: ٩-١٣).

فداء اسحق رمز إلى فداء المسيح للبشرية من حكم الموت المسلط على رقابهم. وهكذا يقول الرسول "الله بين محبته لنا لأنه ونحن بعد خطاه مات المسيح لأجلنا" (رو ٥: ٨).

(د) ذبيحة الفصح:

حدث في الليلة التي أخرج فيها الرب شعبه من أرض مصر، جال الملاك المهلك ليضرب كل بكر في أرض مصر، أما أبكار بني إسرائيل، فقد أمر الرب بأن يفدوهم بذبح خروف ورش دمه على الباب (على القائمتين والعتبة العليا) حتى إذا مر الملاك يعبر ولا يهلك البكر الذي في داخل هذا البيت (خروج ١٢). فكان هذا الخروف رمزاً إلى فداء المسيح للبشرية، إذ برش دمه على القلوب تنجو من ضربة الهلاك.

(هـ) ذبائح الناموس:

لقد حدد الناموس أنواع ذبائح مختلفة يقدمها رئيس الكهنة. والكهنة والرؤساء والشعب عن خطاياهم، منها ذبائح المحرقة وذبائح السلامة، وذبائح الخطية، وذبائح الإثم (لاويين ١: ٧) علاوة على الذبائح اليومية وذبائح السبوت، وذبحة الفصح، وذبحة الكفارة، وذبحة عيد المظال (لاويين ٢٣، عدد ٢٩، ٢٨). وهذه الذبائح جميعها ترمز إلى ذبيحة المسيح لأجل خلاص العالم.

(و) الحية النحاسية:

أمر الرب موسى النبي أن يصنع حية من نحاس ويعلقها على راية لينظر إليها كل من لدغته الحيات المحرقة بسبب تدمرهم في البرية، ومن نظر إليها بإيمان يشفى في الحال، ويخلص من الموت (عدد ٢١: ٤-٩).

وفي هذه الحية رمز واضح للمسيح فقد أشار رب المجد صراحة إلى ذلك إذ قال "وكما رفع موسى الحية في البرية، هكذا ينبغي أن يرفع ابن الإنسان لكي لا يهلك من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية." (يو ١٥: ١٣-١٤).

ورمز الحية للمسيح له عدة أوجه منها:

تعليق الحية على راية يرمز إلى تعليق المسيح على الصليب.

صقل الحية في النار يرمز إلى آلام المسيح.

خلو الحية من السم يرمز إلى خلو المسيح من الخطية (رو ٨: ٣).

لعنة الحية في الفردوس يرمز إلى اعتبار المسيح لعنة لأجلنا (غل ٣: ١٣).

شفاء من ينظر إليها يرمز إلى خلاص من يؤمن بالمسيح (يو ٣: ١٥).

هذه يا أخي تدبيرات الله لخلاص البشرية حتى أنه في "ملء الزمان أرسل الله ابنه مولوداً من امرأة تحت الناموس، ليفتدي الذين تحت الناموس" (غل ٤: ٤). فما أعظم الرب وما أكرم أفكاره العالمة. فإن كنا قد سقطنا بإرادتنا ولم نسلك سبيل الطاعة بل تمردنا وعصينا فقد حصدنا ما زرعنا، علقما ومرارة. وبذلك استحققنا العقاب العادل وهو الموت الأبدي. ومع ذلك ما ارق قلب الرب! وما أعجب محبته! وما أعظم مراحمه فلم يرتض أن يرانا ننحدر إلى الهاوية ويبقى ساكناً بل تحركت أحشائه تعطفاً علينا وأسرعت بيمينه لتتشلنا. وهكذا تم الفداء، وأتم الفادي أعظم عمل اقتضته محبته وقال وقلبه ممثلي سروراً ورغم الآلام: (قد أكمل) وبهذا فصل في أعظم واعقد قضية مرت على البشرية بل تخص البشرية بأسرها، القضية التي ما كان ممكناً أن تحل لولا أن أخذ الفادي على عاتقه أن يتولى بنفسه حلها.

فأي شكر نقدمه له كل حين على فضله الذي لا يوصف! له المجد إلى الأبد. آمين.

نعمة الخلاص

"قد ظهرت نعمة الله المخلصة لجميع الناس.
"(تى ٢: ١١).

الفصل الأول : مفهوم النعمة
الفصل الثاني : عمل النعمة
الفصل الثالث : مجال النعمة
الفصل الرابع : وسائط النعمة

تقديم

ما أطيب قلب الله المحب. فإذا قد وجدني مسكيناً تقيساً، لا حول لي ولا قوة، رازحاً تحت قصاص الموت بسبب خطاياي الكثيرة، وساقطاً تحت عبودية إبليس بسبب ضعفي الشديد وعجز الكمال وعدم مقدرتي على الإفلات من بين أنياب خصمي، حالتي المحزنة هذه قد حركت قلب الله الممتلئ حناناً، "إذ أحبني وأسلم نفسه لأجلي." (غل ٢: ٢٠). وهكذا جاء الابن ومات عوضاً عني، وحول لي العقوبة خلاصاً، ورفع عن عنقي قصاص الموت.

وإذ وجدني ضعيفاً أمام قوة الخطية، وسلطان إبليس، وسيطرة العالم، أرسل لي روح القوة من الأعالى، ليعين ضعفي قائلاً لي "تكفيك نعمتي لأن قوتي في الضعف تكمل" (٢كو ١٢: ٩).

وعلاوة على كل هذا فعندما صعد إلى السماء قال لي "أنا أمضي لأعد لك مكاناً ... وأتى أيضاً وأخذك إلى حتى حيث أكون أنا تكون أنت أيضاً." (يو ١٤: ٢).
فما أعجبك إله رؤوف متحنن، سببت قلبي بحبك، وأخجلتني بعطفك إذ حبوتني بنعمتك المخلصة.

أخي القارئ ما أوجبنا أن نعرف مفهوم النعمة وعملها، ومجالها، ووسائلها المتعددة.

مفهوم النعمة

"العطية بالنعمة"
(رو ٥: ١٥).

أولاً :- عطية مجانية
ثانياً :- عطية عمومية
ثالثاً :- ليست من أعمال بشرية

أولاً:- عطية مجانية

كلمة النعمة في الأصل اليوناني (x a p i s) تعنى (عطية مجانية) كإهداء معروف أو إحسان إلى معوز أو محتاج.

(The International Bible Encyc Vol. 2. P. 1290).

وهكذا من إحسانات الله علينا نحن الخطاة أنه أنعم لنا بالخلاص لهذا يقول بولس الرسول "لأنكم بالنعمة مخلصون بالإيمان وذلك ليس منكم هو عطية الله" (أف ٢: ٨) وعن نعمة تبريرنا مجاناً قال "متبررين مجاناً بنعمته بالفداء الذي بيسوع المسيح" (رو ٣: ٢٤) وقد علق على ذلك القديس أغسطينوس قائلاً "بدون نعمة المسيح لا يمكن لصغير أو كبير أن يخلص، وهذه النعمة لا تعطى مقابل أي شئ وإنما هي عطية مجانية" (N. P. Frs 1st. Ser Vol. 5. P. 122).

حقيقة يا أخي ما كنت أنا أو أنت نستحق نعمة الخلاص ولكن هنا تظهر هبة الله المجانية، فإذا قد وجدنا معوزين ومحتاجين أحسن إلينا، ومال ليخلصنا، رغم عداوتنا له بسبب خطايانا ولكنه يضمّد جراحنا ويخلصنا من الموت، وينقذنا من يدي الأعداء، ويعتني بنا (لو ١٠: ٣٠-٢٧). ماذا فعلنا حتى يخلصنا، وماذا قدمنا له حتى ينقذنا؟ لا شئ بالمرّة.

وما أجمل ما قاله الآباء القديسون "إن كل ما يقدمه بنو البشر هو لا شئ أمامك، حتى أنك حسبت كل ما يعمل به الإنسان كخرقة نجسة، فلا تبطئ أنت يا سيد بمعونتك لأن نعمتك تخلصنا مجاناً، وماء الحياة أنت تقدمه للعطاش إليك بلا ثمن". (كتاب السبع طلبات لمشاهير قديس الكنيسة ص ١٩٨ طبع دير السريان). وقال القديس مار أفرام السرياني: " أثرت أن تخلصنا مجاناً نحن الخطاة، والذين لم يعرفوك أعطيتهم نور المعرفة". (المرجع السابق ص ١٠٢).

أخي إن كنت تريد أن تخلص من عقوبة خطاياك، وتبرّر من آثامك، وتحصل على بر المسيح، أقبل إلى يسوع وهو يعطيك مجاناً.

قصة:

مر غني على بائع أسماك ودفع له ثمن كل ما معه من سمك، وقال له "إني قد دفعت لك ثمن السمك حتى توزعه على فقراء هذا الحي" ولم يعترض الرجل على ذلك لأنه تسلم ثمن السمك كاملاً. فسار في الحي منادياً (ببلاش السمك. سمك ببلاش) بدلاً من قوله (العال السمك) وللأسف لم يصدقه أحد، إلى أن وصل إلى بيت امرأة عجوز فدعته وأخذت منه أكبر سمكه، ثم سألته عن ثمنها لكي تدفعه. فقال لها الرجل كلا يا سيدتي فقد أخذت الثمن فسألته عن الذي دفعه. فأشار لها إلى الغنى الذي كان لا يزال واقفاً، فذهبت إليه وشكرته. ولما رأى سكان الحي ذلك أسرعوا هم أيضاً وأخذوا سمكاً مجاناً وقدموا الشكر لمن دفع الثمن.

أخي أن ربنا يسوع المسيح قد دفع الله الآب ثمن تبريرنا، في حياته وفي مماته. ولأجل ذلك فالله يبررنا مجاناً لأجل خاطر المسيح. "فتعال وتبرر مجاناً بنعمته".

لا تفكر يا أخي فيما تقدمه للمسيح مقابل تبريره لك، فانك بهذا تتقص من قيمة النعمة الإلهية، وبهذا تكسر قلب الله. وكيف تحصل إذن على السلام الذي قال عنه بولس الرسول "إذ قد تبررنا بالإيمان لنا سلام مع الله بربنا يسوع المسيح" (رو ٥: ١).

ومتى حاولت أن تقدم شيئاً للمسيح لكي يبررك، يكون اعتمادك على هذا الشيء لا على نعمة الله المجانية، وبهذا لا تشعر بفضل المسيح عليك ويكون المسيح قد مات بلا سبب. لهذا يقول بولس الرسول "لست أبطل نعمة الله. لأنه إن كان بالناموس بر فالمسيح إذا قام بلا سبب" (غل ٢: ٢١).

يسوع إذن مات من أجل الخطاة الذين لا حول لهم ولا قوة ولم ينتظر منهم شيئاً بالمرة. ثم ماذا تستطيع أن تقدمه للمسيح في مقابل هذا العمل العجيب الذي صنعه. إن أموال العالم كله لا تساوي شيئاً في مقابل هذا الخلاص العجيب.

قصة:

تقدم خادم من خدام الله إلى أحد صيادي اللآلئ ليخبره عن نعمة الله المخلصة. فتسائل الصياد عن ثمن هذه البركة، وحاول الخادم عبثاً أن يقنعه بأنها عطية مجانية يهبها الرب لمن يطلبها.

وذهب الخادم إلى بيت الصياد وهناك وقع نظره لؤلؤة صغيرة موضوعة في مكان ظاهر. فأعجب بها الخادم وطلب أن يشتريها. فقال له الصياد إن هذه اللؤلؤة وإن كانت صغيرة الحجم ولا تمتاز عن بقية اللآلئ إلا أنه لا يقدر ثمنها بمال، فإن أردت أن تأخذها فاقبلها منى هدية. فاندesh الخادم للغاية وتسائل عن السر في ذلك. فأجاب الصياد قائلاً: إن ثمن هذه اللؤلؤة يساوي حياة ابني وحيدي الذي بمجرد صعوده من أعماق المحيط قابضاً عليها بيده أسلم الروح.

وهنا لمع وجه الخادم وتساقطت الدموع من عينيه وقال للصياد إن قصة اللؤلؤة هي قصة الخلاص الذي كلف الله دم ابنه الوحيد، إذ نزل إلى أقسام الأرض السفلي وصنع خلاصاً في وسط الأرض كلها عندما صعد على الصليب وأسلم الروح ... هذه هي النعمة المخلصة التي لا تقدر بمال. فان شئت أن تأخذها اقبلها من يد الله كهدية.

وبهذا استطاع الصياد أن يقدر قيمة هذه العطية المجانية، وقبل نعمة الله المخلصة، وفرح قلبه بهذه الهدية الفائقة الثمن. ليتك يا أخي تقبل من اليد المثقوبة هذه العطية المخلصة.

ثانياً: - عطية عمومية

يوضح معلمنا بولس الرسول عمومية هذه العطية، أي النعمة بقوله: "إن كان بخطية واحد (وهو آدم) مات كثيرون فبالأولى كثيراً نعمة الله والعطية بالنعمة التي بالإنسان الواحد يسوع المسيح قد ازدادت للكثيرين.. فإذن كما بخطية واحدة (أي خطية آدم)، صار الحكم إلى جميع الناس للدينونة. هكذا ببر واحد (وهو المسيح) صارت الهبة إلى جميع الناس لتبرير الحياة." (رو ٥: ١٥-٢١).

فبولس الرسول يوضح أنه بخطية آدم حكم عليه بالموت وورث الجنس البشري كله هذا الحكم.. فبالقياس نرى أن بر المسيح قد برر الجنس البشري كله "لأنه قد ظهرت نعمة الله المخلصة لجميع الناس." (تى ٢: ١١). فلا تقل في نفسك أن الله لم يعطني هذه النعمة، فنعمة الخلاص معروضة على جميع الناس، الأغنياء والفقراء، العلماء والجهلاء، الشرفاء والأدنياء. ويذكر لنا الكتاب عينات كثيرة من هؤلاء وأولئك الذين تمتعوا بالنعمة.

١- فمن الأغنياء:

يذكر يوسف الرامي إذ يقول "جاء رجل غني من الرامه اسمه يوسف وكان هو أيضاً تلميذاً ليسوع." (مر ٢٧: ٥٧). وبرنابا الذي باع حقله (أع ٤: ٣٧) وآخرين قال عنهم الكتاب المقدس: "كل الذين كانوا أصحاب حقول أو بيوت كانوا يبيعونها ويأتون بأثمان المبيعات ويضعونها عند أرجل الرسل." (أع ٤: ٣٤).

وتاريخ الكنيسة يذكر الكثيرين من الأغنياء الذين تركوا مقتنياتهم بعد أن تمتعوا بنعمة الله مثل القديس الأنبا أنطونيوس الذي ورث ٣٠٠٠ فدان وحسبها نفاية ليربح المسيح. ولم يكن الأغنياء فحسب هم الطبقة التي حظيت بالنعمة ولكننا نجد:

٢- فقراء:

كثيرون من الفقراء تمتعوا بهذه النعمة أيضا فانه لا يفرق بين غنى وفقير، فما كان التلاميذ سوى جماعة من صيادي السمك الفقراء، وتاريخ الكنيسة حافل بالقديسين الفقراء كالأنبا إنيانوس أول بطاركة الإسكندرية بعد مار مرقس الكاروز، فقد كان إسكافياً بسيطاً.

٣- أما عن العلماء:

الذين خضعوا لنعمة الله المخلصة فيذكر لنا الكتاب الكثيرين، منهم القديس بولس الرسول فيلسوف المسيحية، والقديس لوقا الطبيب البشير. كما يذكر تاريخ الكنيسة شخصيات كثيرة من العلماء مثل القديس أغسطينوس فيلسوف أوروبا في العصر الوسط، والقديس جيروم والقديس يوحنا ذهبي الفم والأنبا أرسانيوس معلم أولاد الملوك، والعالم الفلكي ديوناسيوس الأريوباغي.

٤- أما الجهلاء:

الذين قبلوا فيض النعمة فالكتاب يرينا بكل وضوح أن "الله اختار جهال العالم ليخزي الحكماء" (١كو ١: ٢٧). فما كان تلاميذ مخلصنا الذين فاضت فيهم النعمة سوى جماعة من صيادي الجليل البسطاء. ويعوزنا الوقت لو تحدثنا عن قديسين بسطاء في تاريخ الكنيسة كان لهم نصيب في نعمة المخلص أمثال القديس بولس البسيط تلميذ القديس أنطونيوس، الذي كانت له دالة قوية على الله حتى كان بنعمته يجرى المعجزات ويخرج الأرواح الشريرة. والأنبا ديمتريوس بابا الإسكندرية، ما كان إلا فلاحاً في الكروم، ولذلك فقد عرف في التاريخ بالأنبا ديمتريوس الكرام. هذا الكرام وهبته النعمة حكمة حتى وضع التقويم القبطي المعروف بتقويم الكرمة.

٥- ومن الشرفاء:

الذين قبلوا نعمة الله يذكر الكتاب كرنيليوس قائد المئة (أع ١٠: ٤٨) وسجان فيلبى (أع ١٦: ٢٥-٣٤) وتاريخ الكنيسة ملئ بمثل هذه الشخصيات كالمملكة هيلانه والملك قسطنطين، ومكسيموس ودوماديوس، والقديسة دميانه ابنة والى البرلس، والقائد الروماني مار جرجس..

٦- أما عن الأدياء:

الذين تفاضلت نعمة الله عليهم حتى انطبق عليهم قول بولس الرسول "اختار الله أدياء العالم والمزدرى وغير الموجود ليبطل الموجود" (١كو ١: ٢٨). فقد ذكر الكتاب أمثلة كثيرة منها اللص اليمين الذي قضى كل أيامه في الإجرام وفي الجرام ولكنه عزم قبل النعمة المخلصة دخل فردوس النعيم (لو ٢٣: ٤٠-٤٣). وأنسميس الذي كان عبداً للقديس فليمون وسرق أمواله فعندما قبل النعمة تغير إلى شخص آخر حتى قال عنه بولس الرسول:

"أطلب إليك لأجل أبنى أنسميس الذي ولدته في قيودي. الذي كان قبلاً غير نافع لك. ولكنه الآن نافع لك ولى" (رسالة فليمون ١٠: ١١). ويذكر الكتاب أيضاً مريم المجدلية والمرأة الخاطئة والتي أمسكت في زنا. ويذكر تاريخ الكنيسة الكثيرين والكثيرات أمثال القديس موسى الأسود الذي كان قاطعاً للطريق، ومريم المصرية التي باعت نفسها لللاثم وعندما تلامست معها النعمة تغيرت إلى قديسة فاضلة.

من هذا يتضح لك يا أخي أن نعمة الله معروضة على الجميع كما يقول الرسول "قد صارت الهبة إلى جميع الناس" (رو ١٨: ٥). فليتك يا عزيزي تقبل نعمة الله المجانية لتختبر محبة الله الفائقة.

حذار من أن ترفض هذه النعمة ! فان قصد الله من وراء ذلك هو مصلحتك ومصلحتك الشخصية. إن الله لا يريد أن يأخذ منك شيئاً بالمرّة وإنما يريد أن يعطيك ومجاناً هذه العطية المباركة. وكم أخشى أن ترفض الآن أخذ هذه النعمة فتندم أخيراً حيث لا ينفع الندم.

قصة:

قرأت قصة عن أحد خدام الله.. أنه ذهب يوماً ما لزيارة امرأة فقيرة كان يعرف احتياجاتها. وحثه الرب أن يقدم لها مساعدة تكفي لسد هذه الاحتياجات. وعندما قرع الباب لمدة طويلة ولم يفتح أحد، انصرف ظاناً أنها غير موجودة. وفي اليوم التالي تقابل معها في الكنيسة وأخبرها عن زيارته لها وغرضه من ذلك. فتأسفت المرأة جداً وقالت له "آه يا سيدي لقد كنت في المنزل وسمعت قرعائك ولم افتح الباب. لقد ظننت أنك صاحب المنزل قد أتيت لتطالبي بالأجرة

أخي الحبيب.. يسوع يقرع على باب قلبك ليعطيك النعمة فهل تفتح ؟
ثالثاً:- ليست من أعمال بشرية

إذ قد وضحنا أن النعمة هي عطية مجانية، فمعنى ذلك أنها ليست من أعمال بشرية. ويؤيد هذه الحقيقة كثير من الآيات الكتابية وأقوال الآباء القديسين.

فبولس الرسول يقول "فإن كان بالنعمة فليس بعد بالأعمال وإلا فليست النعمة بعد نعمة" (رو ١١: ٦). ويعود أيضاً ليزيد الأمر إيضاحاً فيقول: "لا بأعمال في بر عملناها نحن بل بمقتضى رحمته خلصنا ... حتى إذا تبررنا بنعمته نصير ورثة حسب رجاء الحياة الأبدية." (تى ٣: ٥-٧).

ويوضح الرسول السر في هذا، وهو منع الافتخار. لأن الإنسان إن كان يخلص بأعماله فيحق له أن يفتخر لأن ذراعه قد خلصته ولكن الرسول يقول في صراحة لا تحتل التأويل "لأنكم بالنعمة مخلصون بالإيمان. وذلك ليس منكم. هو عطية الله. ليس من أعمال كيلا يفتخر أحد" (أف ٢: ٨).

ويقول بولس الرسول أيضاً: "ليس لي برى الذي من الناموس بل الذي بإيمان المسيح البر الذي من الله بالإيمان." (فى ٣: ٩).

ويعود فيقول: "إذ نعلم أن الإنسان لا يتبرر بأعمال الناموس بل بإيمان يسوع المسيح آمنا نحن أيضاً بيسوع المسيح لتتبرر بإيمان يسوع لا بأعمال الناموس. لأنه بأعمال الناموس لا يتبرر جسد ما." (غل ٢: ١٦).

أخشى يا أخي أن تكون وأنت مسيحي تعيش كما كان اليهود يعيشون. فتعتمد على مجرد تأديتك لبعض فرائض العبادة دون أن تكون لك العلاقة الشخصية المبنية على بر المسيح ودون أن يكون لك الاتكال الفعلي على عمل النعمة المجاني فالرسول يقول "القوار جاءكم بالتمام على النعمة التي يؤتى بها إليكم". (بط ١: ١٣). اسمع ما قاله الآباء في هذا الصدد وليت الرب يعطيك نعمة لتفهم وتختبر ما اعتبروه:

.. كانوا أشراراً ومستعبدين لكنهم تحرروا ليس بمجهوداتهم الشخصية ولكن بالنعمة.. لم تكن توجد أي قوة بشرية تستطيع أن تحررنا من شرورنا لكن شكراً لله الذي أراد واستطاع أن ينجز هذا العمل الجليل.
(يوحنا ذهبي الفم)

(N. & P. Fathers 1st Ser, Vol. X1 P. 412).

"إن لم تشرق على رأفتك يا الله سريعاً فليس لي من أعمالي ولا رجاء واحد للخلاص" (مار افرام السرياني).
[كتاب السبع طلبات لمشاهير قدسي الكنيسة ص ٤٦ طبع دير السرياني]
"وبأعمالي ليس لي خلاص ... فلماذا أسأل بعين رحمة يارب أنظر إلى ضعفي وزلي ومسكنتي. [الأجبية صلاة نصف الليل]

"ويصبح الإنسان لابساً لله ... وحينئذ تفتح عينا قلبه وينظر النور الحقاني ويفهم أن يقول "إني بالنعمة تخلصت بالرب يسوع المسيح"
(القديس برصنوفوس بستان الرهبان ص ١٨١).

إن الإنسان لا يتبرر بمظاهر حياة القداسة وإنما بالإيمان بالرب يسوع، أي ليس بالأعمال بل بالإيمان، وليس بالأعمال الصالحة بل بالنعمة المجانية. " (القديس أغسطينوس)

(N. P. Frs 1st. ser. Vol.5 P. 92)

"لا تشك إذن فالخلاص بالإيمان وليس بالأعمال".

(القديس يوحنا ذهبي الفم)

(NP. Frs 1st. ser. Vol. X1 P. 378)

ولكن ليس معنى هذا أن الذي يخلص بالنعمة لا يهتم بالأعمال الصالحة. فبولس الرسول إذ قال: "لا بأعمال في بر عملناها نحن بل بمقتضى رحمته خلصنا" (تي ٣: ٥). أكمل حديثه قائلاً: "وأريد أن تقرر هذه الأمور لكي يهتم الذين آمنوا بالله أن يمارسوا أعمالاً حسنة" (تي ٣: ٨). بل علي العكس فإن من يخلص بالنعمة يخلق خليفة جديدة فيترك أعماله الشريرة ويسلك في أعمال صالحة.

لهذا فقد حرص بولس الرسول أيضاً بعد قوله: "بالنعمة أنتم مخلصون بالإيمان وذلك ليس منكم هو عطية الله. ليس من أعمال كيلا يفتخر أحد". (أف ٢: ٨) ...
أكمل قائلاً "لأننا نحن عمله مخلوقين في المسيح يسوع لأعمال صالحة قد سبق الله فأعدها لكي نسلك فيها". (أف ٢: ١٠).

ومن أجمل ما قاله بولس الرسول: "لأنه قد ظهرت نعمة الله المخلصة لجميع الناس معلمة إيانا أن نكرر الفجور والشهوات العالمية ونعيش بالتعقل والبر والتقوى في العالم الحاضر." (تي ١٢: ٢، ١١).

فغاية ما نريد أن نوضحه أن الخلاص لا يكون بواسطة أعمالك فأعمالنا لا تستطيع أن توفي عدل الله وذلك لأنه:
إذ أخطأنا إلى الله غير المحدود صارت خطيتنا غير محدودة
والخطية غير المحدودة تستلزم عقوبة غير محدودة
والعقوبة غير المحدودة تحتاج لكفارة غير محدودة

وأعمالنا الصالحة مهما كانت فهي محدودة. لهذا فهي لا تستطيع أن تكفر عن خطيتنا غير المحدودة.

فمن ذلك نستخلص أنه لا توجد كفارة لخطايانا سوى المسيح غير المحدود الذي يخلصنا من عقوبة خطايانا الغير محدودة "ليس بأحد غيره الخلاص لأن ليس اسم آخر تحت السماء قد أعطى بين الناس به ينبغي أن نخلص." (أع ٤: ١٢).

هذا ولا يمكن أن تكون هناك مغفرة للخطايا بدون سفك دم كما يقول الكتاب "بدون سفك دم لا تحصل مغفرة" (عب ٩: ٢٢). والأعمال البشرية ليس فيها سفك دم! حتى وإن سفك الإنسان دماً، كأن يقدم ذبيحة حيوانية، فهذا أيضاً لا يصلح لمغفرة الخطايا إذ يقول بولس الرسول "لا يمكن أن دم ثيران وتيوس يرفع خطايا" (عب ١٠: ٤). أما الذبائح الحيوانية قديماً فكانت رمزاً لذبيحة المسيح علي الصليب، فماعد الذبائح الحيوانية في العهد القديم قيمة في غفران الخطايا.

فمن هذا يتضح لنا أن الأعمال البشرية مهما عظمت لا تستطيع أن تكفر عن أية خطية مهما صغرت. فلا يوجد سوى "وسيط واحد بين الله والناس، الإنسان يسوع المسيح الذي بذل نفسه فدية لأجل الجميع" (١ تي ٢: ٥). فشكراً لله الذي إذ وجد أن أمر خلاصنا يتطلب سفك دمه، بذل ابنه الوحيد ليتم لنا هذا العمل الجليل.

كان هذا عن استحالة الخلاص من قصاص الخطية بواسطة أية أعمال بشرية. أما بخصوص الخلاص من سلطان الخطية وقوتها، التي كثيراً ما يشكو منها الجميع فنقول أيضاً أن الأعمال البشرية لا تستطيع أن تخلص منها.

كثيرون يقولون إننا نؤمن أن المسيح غفر خطايانا، وأنه مستعد أن يغفر كل زلاتنا، ولكن ما يحزننا هو عدم استطاعتنا السلوك بالقداسة. فكلما حاولنا أن نننصر نجد أنفسنا ساقطين تحت سلطان الخطية تماماً كما قال بولس الرسول "الإرادة حاضرة عندي وإما أن أفعل الحسنى فلست أجد" (رو ٧: ١٨). وهذا هو ما يفشلنا من الحياة مع المسيح.

أقول لك يا أخي إن محاولة تهذيب نفسك بالوسائل المختلفة، لا يجدي نفعاً مع طبيعتنا الفاسدة الساقطة، إذ سرعان ما تعود النفس إلى قبيها. يتضح ذلك من القصة الآتية التي قرأتها في بستان الروح.

القصة نقول:

ذكر عن أب راهب كان ساكناً في دير، مداوماً على الصمت، لكنه كان يغضب في بعض الأحيان أثناء اتصالاته ببعض الاخوة. فقال في نفسه "أمضى واسكن وحدي في مغارة وحيث لا يكون هناك أحد ساكناً معي فسوف أهدأ ويخف عني وجع الغضب". فخرج وسكن وحده في مغارة. وفي إحد الأيام ملأ (القلة) ماء ووضعها على الأرض، ولوقتها تدرجت وانسكب ما فيها. فأخذها وملأها ثانية ووضعها. فانسكبت كذلك، وهكذا مرة ثالثة. فغضب وأمسكها وضربها على الأرض فتحطمت.

فلما هدأ ورجع إلى ذاته ... وقال لنفسه "هوذا قد انغلبت وأنا في الوحدة كذلك. فلأذهب إلى الدير لأنه في كل موضع يحتاج الإنسان إلى معونة من الله". [بستان الروح الجزء الأول ص ٣٦٨ - تأليف الراهب القمص شنودة السرياني.]

من هذه القصة يتضح لنا حقيقة النفس البشرية فلقد حاول الراهب أن يهذب نفسه بالصمت والابتعاد عن الناس وعاش في وحدة، ورغم ذلك فلا زالت طبيعته في الداخل كما هي، لم تتغير. فتحقق أخيراً أنه محتاج إلى معونة الله أي إلى النعمة المخلصة.

فالنعمة تقوم بتغيير القلب من الداخل حتى تصدر منه الصالحات، كما قال رب المجد "الإنسان الصالح من كنز قلبه الصالح يخرج الصالحات" (لو ٦: ٤٥). ولهذا فقد وضح أيضاً الرب حقيقة في غاية الأهمية بخصوص هذا الموضوع إذ قال "لا تقدر شجرة ردية أن تصنع أثمار جيدة" (مت ٧: ١٨). لهذا فمن العبث أن نطلب من القلب الردي أن يصنع أثماراً جيدة، إذ يلزم تغييره أولاً ومن أجل ذلك قال رب المجد "اجعلوا الشجرة جيدة (لتكون) ثمرها جيداً" (مت ١٢: ٢٢).

وهنا يعترضنا سؤال جوهري: فكيف يمكن تغيير هذا القلب؟ حقاً إنها مشكلة عويصة! فلا يمكن أن يتغير القلب إلا بمعجزة إلهية! نعم الأمر يحتاج إلى معجزة ينزع بها الرب القلب القديم ويضع عوضاً عنه قلباً جديداً. هذا العمل هو الذي وضحه بقوله "أعطيك قلباً جديداً وأجعل روحاً جديدة في داخلكم. وأنزع قلب الحجر من لحمكم وأعطيك قلب لحم. وأجعل روحي في داخلكم" (حز ٣٦: ٢٦).

هذا العمل لازم لكل نفس تريد أن تسلك في وصايا الله وتحيا بالقداسة. وإذ قد عرف هذا الأمر داود النبي نراه يصرخ للرب طالباً إجراء هذه العملية المعجزية فيقول "قلباً نقياً اخلق في يا الله وروحاً مستقيماً جدد في داخلي" (مز ٥١: ١٠). ولا ولا بد أن داود قد سمع بما حدث مع شاول الملك عندما دعاه الرب إذ قال له على لسان صموئيل النبي "يحل عليك روح الرب ... وتتحول إلى رجل آخر" (١ صم ١٠: ٦).

ويسجل الكتاب إجراء هذه العملية له فيقول "وكان عندما أدار كتفه لكي يذهب من عند صموئيل أن الله أعطاه قلباً آخر" (١ صم ٩: ١٠).

ولكن كيف تجرى هذه العملية؟ يوضح الكتاب الطريقة التي بها تتم في معرض حديثه عن الجماعة التي تبعت شاؤل الملك بعد التغيير فيقول "وذهب معه الجماعة التي مس الله قلبها" (١ صم ١٠: ٢٦).
آه يا أخي ليت الله يمس قلبك الآن فتتحول إلى رجل آخر!!

قصة:

هناك أسطورة تقول إن أحد الملوك اصطحب وزيره في نزهة خلوية فمرا على بركة بها خنازير تتمرغ في الوحل وتأكل الرمم. فقال الوزير للملك هل تستطيع يا جلالة الملك أن تغير طبع الخنزيرة حتى تبغض الوحل وتكره الرمم. فأجاب الملك بأن ذلك أمر هين، فإذا تعودت الخنزيرة على النظافة تهذب طبعها وأبغضت القاذورات. فطلب الوزير من الملك أن يجرى هذه التجربة. فأرسل الملك واستحضر خنزيره، وأمر بأن تطعم من أطايب الملك ومن طيب مشروبه، وأن تغسل بالماء والصابون يومياً، وتكسى بأفخر الثياب. وبعد مدة من الزمن ظن الملك أن الخنزيرة قد تغيرت طبيعتها، وتعودت النظافة، فصحب الوزير وأخذ الخنزيرة إلى البركة، وما أن اقتربت الخنزيرة من البركة حتى اندفعت بكل قوتها لتتمرغ في الطين والوحل الذي حرمت منه هذه المدة الطويلة. فاندesh الملك وطلب من الوزير أن يجرى تجربة على الخنزيرة نفسها ... وفي اليوم المعين توجه الملك مع الوزير وأخذ الخنزيرة بعد أن قضت في بيت الوزير أياماً قليلة. اقتربوا من البركة وأبت الخنزيرة النزول. أمر الملك بدفعها إلى الوحل فقاومت الخنزيرة وأسرعت إلى الشاطئ لتتنفض عن جسمها ما لحق بها من الطين. فتعجب الملك وسأل من الوزير عن سر ذلك. فأجاب الوزير بأنه قد أجرى عملية جراحية للخنزيرة واستأصل قلبها الفاسد ووضع محله قلب حمل وديع. وبهذا تغيرت الخنزيرة وأبغضت القذارة.

أخي.. لعلك تدرك أنه لا فائدة من تهذيب القلب القديم الفاسد بل الحاجة ماسة إلى إجراء عملية لاستئصاله وزرع قلب جديد. لهذا حرص آباء الكنيسة على وضع هذه الطلبة في بداية كل صلاة من صلوات النهار السبعة عندما يصلي المؤمن المزمور الخمسين (٥١ في طبعة بيروت) فيطلب قائلاً "قلباً نقياً أخلق في يا الله وروحاً مستقيماً جدد في داخلي". فليتك تطلب من الرب إجراء هذه العملية لقلبك وهو مستعد أن يعطيك كل ما تطلب.

ومتى حصلت على هذا القلب الجديد ستتغير ميولك وأهدافك، وتصرفاتك ستحبب المسيح بكل قلبك. وستبغض الخطية وتتجنبها وتبتعد عنها. ستقاوم إبليس وتغلبه بقوة المسيح وإن تعثرت تقوم في الحال ولا تستسلم للسقوط بل يكون شعارك "لا تشمتي بي يا عدوتي (الخطية) إذا سقط أقوم" (مى ٧: ٨).

هذا القلب الجديد سيحبب الله والمسيح ويتعلق به، ولن يشبع من الحديث معه وسماع صوته ومجالسته. هذا القلب الجديد سيحبب الناس ويشتاق إلى خلاص نفوسهم، لن توجد بين هذا القلب وبين الناس خصومات، بل يسعى إلى خلاصهم والتفاني في خدمتهم.

آه يا أخي ليتك تختبر هذا الأمر العجيب.
ونصيحتي لك أن تصارع مع الرب كما صارع يعقوب لأخذ البركة ولا بد أن يعطيك الرب.

عمل النعمة

"بالنعمة أنتم مخلصون"
(أف ٢: ٥).

أولاً :- التبشير
ثانياً :- التقديس
ثالثاً :- التمجيد

في بداية القرن الخامس الميلادي ظهرت في بريطانيا الهرطقة البيلاجية Pelagianism نسبة إلى مبتدعها الراهب الإنجليزي Pelagius الذي نادى بعدم احتياج البشر للنعمة المخلصة، وبأن للإنسان قدرة ذاتية طبيعية تمكنه من الخلاص والوصول للكمال بمجهوداته الشخصية دون تدخل من جانب النعمة. وقد عقدت عدة مجامع كنسية شجبت هذه البدعة، وأكدت أن الإنسان في مسيس الحاجة لنعمة المسيح التي بدونها لا يستطيع أحد أن يخلص. وقد انبرى القديس أوغسطينوس مفنداً هذه الهرطقة ومثبتاً أنه لا خلاص إلا بالنعمة الموهوبة من الله. وقد جمعت كتاباته ضد هذه الهرطقة في مجلد بلغ حجمه ٧٥٠ صفحة.

. (N.P.Fars Ser. Vol. 5)

وعلى منوال هذه البدعة نسج كثيرون من المدعين على مر العصور، محاولين إنكار عمل النعمة كلية أو التقليل من شأنها. وحتى لا نحيد عن جادة الصواب دعنا نرجع إلى الكتاب المقدس وأقول آباء الكنيسة القديسين لنعرف عمل النعمة المخلصة ويشمل:

التبرير :

التقديس:

التمجيد :

أولاً:- التبرير

للتبرير اتجاهان : تبرير أمام الله، وتبرير أمام الناس.

التبرير أمام الله

وهو من عمل النعمة البحث ولا دخل لعمل الإنسان في تبريره أمام الله، فما عليه إلا أن يتوب ويثق في بر المسيح حتى ينال هذه النعمة. والتبرير أمام الله نعمة فائقة تشمل:

(أ) ستر خطايانا: أي مغفرتها. فكلمة ستر هي نفس كلمة (غفر). {كتاب صلاة الشكر لقداسة الأنبا شنودة الثالث ص ١٩}

ففي صلاة الشكر نرفع قلوبنا لله شاكرة نعمته (لأنه سترنا) أي غفر خطايانا. وغطاها فلم تظهر أمام العدل الإلهي.

وعن هذه النعمة قال الكتاب "طوبى للذين غفرت آثامهم وستررت خطاياهم" (رو ٤: ٧). فالغفران إذن هو ستر خطايانا بحجاب الفادي، فيغض الله الطرف عنها لأن المسيح "كفارة لخطايانا. ليس لخطايانا فقط بل لخطايا كل العالم" (١يو ٢: ٢).

(ب) محو خطايانا: فالتبرير لا يشمل فقط الغفران بمعنى ستر الخطية فحسب، وإنما يشمل أيضاً محوها وهذا من عمل النعمة أيضاً إذ يقول داود النبي "استر وجهك عن خطيائي وامح كل آثامي" (مز ٥١: ٩). وقال الرب عن لسان أشعيا النبي "قد محوت كغيم ذنوبك وكسحابة خطاياك" (أش ٤٤: ٢٢). وأيضاً "أنا أنا هو الماحي لذنوبك لأجل نفسي، وخطاياك لا أذكرها" (أش ٤٣: ٢٥). وهذا أيضاً هو عين ما وضحه بطرس الرسول إذ قال "توبوا وارجعوا لتحمي خطاياكم" (أع ٣: ١٩). وبولس الرسول يصف عمل المسيح الفدائي بقوله "محا الصك الذي علينا" (كو ٢: ١٤).

ونعمة محو خطايانا تتم في دم المسيح إذ يطهرنا من كل خطية "إن اعترفنا بخطايانا فهو أمين وعادل حتى يغفر لنا خطايانا ويطهرنا من كل إثم" (١يو ١: ٩).
فشكراً لله على هذه النعمة العظيمة.

قصة:

تعاملت النعمة مع أحد الخطاة حتى سقط تحت التبكيت، واعتراه الحزن واليأس. وفي الليل كشف الرب عن عينيه ليرى هذه الرؤيا ... نظر فوجد أمامه لوحة كبيرة سوداء. ولما اقترب منها عرف أن ما كتب عليها بالأسود هي خطاياها الكثيرة. فصار يبكي وينتحب. وبينما هو على هذا الحال، إذ به يرى يداً مثقوبة تسيل بالدماء وتسير على اللوحة من فوق إلى أسفل، فلاشت كل ما كان مكتوباً عليها، وصارت بيضاء كالصوف النقي. وقد كتبت عليها "محوت كغيم ذنوبك وكسحابة خطاياك" وقام من نومه وإذا بشمس الأحد تمزق ستائر الظلام، فأسرع إلى الكنيسة وتقدم إلى أبيه الروحي الذي قدمه إلى سر الشركة المقدسة بعد أن استمع إلى اعترافه وأعطاه الحل من خطاياها. وصار له سلام في الداخل "وفرّح لا ينطق به ومجيد" (١بط ٨: ٨).

(ج) عدم حساب خطايانا علينا:

تأمل يا أخي هذا الامتياز المدهش فإله لا يستر خطايانا فقط، ولا يمحوها فحسب، بل ما هو أعظم من ذلك، إذ أنه لا يحسبها علينا مطلقاً. فمعلمنا بولس الرسول يقول "إن الله كان في المسيح مصالحاً العالم لنفسه غير حاسب لهم خطاياهم" (٢كو ١٩: ١).

كيف يكون هذا؟ ولماذا لا يحسبها الرب علينا مع أننا نحن قد ارتكبناها؟ إن السبب في ذلك هو أن خطايانا قد حسبت على المسيح شخصياً. كما يقول أشعيا النبي "كلنا كغنم ضللنا. ملنا كل واحد إلى طريقه والرب وضع عليه إثم جميعنا" (أش ٥٣: ٦). وبولس الرسول يقول "لأنه جعل الذي لم يعرف خطية، خطية لأجلنا، لنصير نحن بر الله فيه" (٢كو ٥: ٢١).

أنسيمس العبد:

أنسيمس هذا كان عبداً عند أحد تلاميذ بولس الرسول ويدعى فليمون. سرق هذا العبد بعض الأموال من سيده وهرب. ثم تقابل مع بولس الرسول وتجدد على يديه معترفا بخطاياها تائباً عنها. فكتب بولس الرسول رسالة إلى فليمون وسلمها لأنسيمس لتوصيلها. وقد كتب فيها "إن كان (أنسيمس) قد ظلمك بشيء، أو لك عليه دين. فاحسب ذلك على. أنا بولس كتبت بيدي أنا أوفي" (فليمون ١٨). فهل بعد هذا يعود فليمون ويطالب أنسيمس بالدين؟ كلا. فقد دفعه بولس، ونحن نعلم أن الدين لا يدفع مرتين.

هذا ما صنعه يسوع معنا، فإذ كنا مدينين للعدل الإلهي وقَّي يسوع الدين كله على خشبة الصليب. فلا يحسب الرب علينا خطية.

(د) حسابان بر المسيح:

إن للتبرير معنى أعظم بكثير من مجرد الغفران والمحو، وعدم حسابان الخطية علينا، فهذه كلها أمور سلبية لتطهير المؤمن من نتائج الخطية. فإن أسمى ما في التبرير هو الناحية الإيجابية أي حسابان بر المسيح لنا. يوضح ذلك معلمنا بولس الرسول في قوله "جعل الذي لم يعرف خطية، خطية لأجلنا. لنصير نحن بر الله فيه" (٢كو ٥: ٢٠).

وقد علق على ذلك القديس يوحنا ذهبي الفم بقوله: (إن الرسول لم يقل "جعل البار خاطئاً. ليصير الخطاة أبراراً ولكنه قال ما هو أسمى من ذلك بكثير. ولم يقل جعل الذي لم يخطئ بل الذي لم يعرف خطية. جعله لم يقل خاطئاً بل جعله خطية لنصير نحن ليس أبراراً بل برأ وبر الله. فهذا هو بر الله أننا لم نتبرر بالأعمال بل بالنعمة حتى أن جميع خطايانا قد محيت. وهذا الأمر لا يدفعنا إلى الكبرياء، إذ أن الكل عطية مجانية من الله، وفي نفس الوقت ترينا عظمة ما حصلنا عليه)

(N.P.Frs 1st. Ser. Vol. X11 P. 33)

ويعود معلمنا بولس الرسول فيقول: "متبررين مجاناً بنعمته بالفداء الذي بيسوع المسيح الذي قدمه الله كفارة بالإيمان بدمه لإظهار بره من أجل الصفح عن الخطايا السابقة بإمهال الله وإظهار بره في الزمان الحاضر ليكون باراً ويبرر من هو من الإيمان بيسوع" (رو ٣: ٢٤-٢٦).

ويعلق على ذلك القديس يوحنا ذهبي الفم قائلاً ما هو إظهار البر؟ إن إظهار البر يشبه إظهار الغنى، فالغنى هو ليس أنه غنى فحسب بل أنه يغنى الآخرين. ومثل إظهار الحياة، ليس أنه حي فحسب بل إنه يعطي الأموات حياة. ومثل إظهار قوته، ليس أنه قوى فحسب بل إنه يعطي الضعفاء قوة.

فهكذا أيضاً في إظهار بره، ليس أنه بار فحسب، بل إنه جعل المملوئين فساداً وفتنة أن يصيروا أبراراً ...

ولكي يوضح ذلك أي (إظهار بره) أضاف قائلاً: (ليكون باراً ويبرر من هو من الإيمان بيسوع) فلا تشك إذن لأن التبرير ليس بالأعمال بل بالإيمان فلا يفوتك بر الله، إذ أنه امتياز له صفاته: سهولة الحصول عليه. وعموميته للجميع.

فلا تتوان ولا تخجل، فإذ قد أظهر أنه هو نفسه الذي يقوم بهذا العمل، وهو بالتأكيد يجد فيه مسرة وفخراً، فلماذا تغتم أنت وتخزي من الأمر الذي يتمجد به سيدك؟!

(N.P.Frs 1st. Ser. Vol.X1 P.377, 378)

هذه هي عظمة التبرير. ولقد قامت ضد هذا التعليم السامي هرطقات عديدة تقلل من شأن هذه النعمة وتجعل للتبرير ركيزة أخرى غير دم المسيح، الأمر الذي يهين الله، ويطعن في كفاية كفارة المسيح. لهذا قام آباء الكنيسة بردع المدعين المبتدعين وإليك بعض أقوالهم في هذا الصدد.

يتساءل القديس أوغسطينوس قائلاً: (ما معنى قول الرسول "متبررين مجاناً بنعمة" وماذا يقصد بقول "لأنكم بالنعمة مخلصون" وحتى لا يظن أحد أن الخلاص بالأعمال يضيف الرسول قائلاً "بالنعمة أنتم مخلصون بالإيمان" وخشية أن يفكر أحد أن الإيمان عمل بشرى مستقل عن النعمة، يوضح الرسول أن الإيمان هو أيضاً من عمل النعمة بقوله "وذلك ليس منكم هو عطية الله" (أف ٢: ٨).

(N. P. Frs 1st. Ser. Vol.V P. 229,230)

وقال أيضاً القديس أغسطينوس:

بدون نعمة المسيح لا يمكن لصغير أو كبير أن يخلص، وهذه النعمة لا تعطى مقابل أي شيء صالح وإنما هي مجانية

لهذا فهي تسمى نعمة "متبررين مجاناً بنعمته" (رو ٣: ٢٤).

(P. 122 1 bid)

وقال أيضاً القديس أغسطينوس:

"إن في هذا ثناء عظيماً على النعمة أيها الأخوة، حتى تتعلم النفس الاتضاع، ويستد فم الكبرياء. فليجب الآن إن استطاع أولئك الذين إذ يجهلون بر الله ويطلبون أن يثبتوا بر أنفسهم لم يخضعوا لبر الله (رو ١٠: ٣). إن إجابتكم تتضمن الكفر عندما تقولون أن الله قد خلقنا ونحن نستطيع أن نصير أبراراً بأنفسنا"

(N.P.F. Vol.7 P. 345)

وقال أيضاً القديس أوغسطينوس:

دفاعاً عن نعمة المسيح أرفع صوتي قائلاً: بدون النعمة لا يتبرر أحد.

(N.P.F. Vol.5 P.142)

ومن أجمل أقواله في هذا الصدد ما ختم به حديثه إذ قال "وختام القول أن الإنسان لا يتبرر بمظاهر حياة القداسة وإنما بواسطة الإيمان بالرب يسوع. أي ليس بالأعمال بل بالإيمان، ليس بالأعمال الصالحة بل بالنعمة المجانية". (1 bil P. 92).

والقديس يوحنا ذهبي الفم يقول:

"إننا لم نتبرر بالأعمال بل بالنعمة، حتى أن جميع خطايانا قد محيت. وهذا الأمر لا يدفعنا إلى الكبرياء، لأن الكل عطية مجانية من الله."

(N.P.F. 1st. Ser. Vol.12 P. 334)

ومن روائع أقوال ذهبي الفم ما قاله تعليقاً على قول بولس الرسول "لأن فيه أعلن بر الله بإيمان لا يمان كما هو مكتوب أما البار فبالإيمان يحيا" (رو ١: ١٧). فيقول:

وحتى لا يشك أحد في إمكانية الخلاص والسلام يتكلم عن البر، ليس بر الإنسان بل بر الله، ليظهر فيض هذا البر وسهولة الحصول عليه، إذ لا يحصل عليه الإنسان بالجهد والعمل بل يقبله عطية من فوق. متطلباً شيئاً واحداً من جانبك وهو الإيمان ... وحتى لا يشك أحد في صدق كلامه بأن الزاني والشرير والسارق لا يتحرروا فقط من العقوبة بل يصيروا أبراراً، ولهم أسمى أنواع البر (أي بر الله ذاته) يدعم كلامه باستشهاد من العهد القديم من سفر حبقوق الذي قال "أما البار فبالإيمان يحيا". (حب ٢: ٤).

(N.P.F 1st. Ser Vol. 12 P.349)

ملحوظة:

إن اختبار التبرير هذا لا يمكن أن يفهم منه أن الإنسان طالما قد تبرر بالإيمان، وحسب له بر المسيح، فيستريح لنفسه الخطية ويتمادي فيها ... أو على الأقل يشجعه على الكسل والتراخي وعدم الاكتراث هذا فكر خاطئ ولا يمكن أن يحدث للإنسان قبل المسيح حقاً. وبولس الرسول قد ناقش هذا الموضوع فقال: "حيث كثرة الخطية ازدادت النعمة جداً .. فماذا نقول. أنبقى في الخطية لكي تكثر النعمة. حاشا. نحن الذين متنا عن الخطية كيف نعيش بعد فيها" (رو ٥: ٢٠).

وكقاعدة عامة: تبرير بلا تقديس يجعل الإنسان أشد من إبليس. وما أجمل ما قاله القديس يوحنا ذهبي الفم في هذا الصدد. (لا تستسلم للكسل بحجة أن الكل بالنعمة، فالرسول يسمي الأعمال الصالحة أيضاً نعمة لأنها تحتاج إلى قدرة علوية للقيام بها)

(N. P.F 1st. Ser Vol X1 P.345).

٢- التبرير أمام الناس

فالخاطئ الذي حصل على التبرير لا بد وأن تظهر نعمة الله في حياته الجديدة، وأعماله الجديدة، وبهذا يتبرر أمام الناس فزكا العشار بعد أن تقابل مع المسيح وقبله فرحاً، قال للرب "هاأنا يارب أعطى نصف أموالي للمساكين وإن كنت وشيت بأحد أرد له أربعة أضعاف" (لو ١٩: ١-٨). فكان هذا دليلاً على خلاصه، لذلك قال له رب المجد "اليوم حصل خلاص لهذا البيت" (لو ١٩: ٩).

فتبرير المؤمن أمام الناس هو انطباعات تبريره أمام الله. فكما غفر له الله خطايا عليه أن يغفر للآخرين أيضاً "اغفر لنا ذنوبنا كما تغفر نحن أيضاً للمذنبين إلينا" (مت ٦: ١٢). وكما نال من الرب نعمة وإحساناً، لا بد وأن يعطى هو للآخرين أيضاً بحسب مقدوره. وهذا ما وضعه معلمنا يعقوب في رسالته إذ قال "إن كان أخ وأخت عريانين ومعتازين للقوت اليومي فقال لهما أحذكم امضيا بسلام استدفئا واشبعوا، ولكن لم تعطوهما حاجات الجسد

فما المنفعة" (يع ١٦: ٢٠). وبهذا يكمل حديثه قائلاً "ترون إذن أنه بالأعمال يتبرر الإنسان لا بالإيمان وحده". (يع ٢: ٢٤).

وقد وضع معلنا بولس الرسول اتجاهي التبرير هذين (أمام الله وأمام الناس) في معرض حديثه عن تبرير أبينا إبراهيم فوضح قائلاً:

التبرير أمام الله بالإيمان في قوله:

"لأنه ماذا يقول الكتاب. فأمن إبراهيم بالله فحسب له برّاً ... أما الذي يعمل فلا تحسب له الأجرة على سبيل نعمة بل على سبيل دين. وأما الذي لا يعمل ولكن يؤمن بالذي يبرر الفاجر فإيمانه يحسب له برّاً. كما يقول داود أيضاً في تطويب الإنسان الذي يحسب له الله برّاً بدون أعمال. "طوبى للذين غفرت آثامهم وسترت خطاياهم. طوبى للرجل الذي لا يحسب له الرب خطية" (رو ٤: ٣-٨).

تبرير أمام الناس بالأعمال في قوله:

"إن كان إبراهيم قد تبرر بالأعمال فله فخر. ولكن ليس لدى الله" (رو ٤: ٢). علماً بأن القيام بأعمال البر هذه لا يقوم بها المؤمن من ذاته وإنما بعمل النعمة فيه إذ يقول رب المجد "بدوني لا تقدرون أن تفعلوا شيئاً" (يو ١٥: ٥). وبولس الرسول يؤكد هذه الحقيقة بقوله "لأن الله هو العامل فيكم أن تريدوا وأن تعملوا من أجل المسرة" (في ٢: ١٣).

وقد أيد الآباء القديسون هذا المفهوم بكل جلاء كما نرى.

يقول القديس أغسطينوس (فليجب أصحاب الأخلاق الرفيعة الذين يظنون أنهم ليسوا في حاجة لله للقيام بالأعمال الصالحة! ألا يقول الحق أولئك الناس الفاسدة أذهانهم، والمرفوضون من جهة الإيمان. (٢ تي ٣: ٨). ما هذا الذي تقولونه يا من تخذعون أنفسكم؟). لماذا تقولون أن الإنسان يستطيع أن يعمل البر بنفسه؟. فإن هذا هو قمة غروركم ... ولكن الحق يناقض قولكم ويعلن "أن الغصن لا يقدر أن يأتي بثمر من ذاته إن لم يثبت في الكرمة".

ومن يتوهم أنه يستطيع أن يأتي بثمر من ذاته فهو ليس في الكرمة، ومن ليس في الكرمة فهو ليس في المسيح، ومن ليس في المسيح فهو ليس مسيحياً.

(N. P. F. 1st. Ser. Vol. 7P. 345)

وقال أيضاً تفتخرون بأعمالكم الحسنة كما لو كانت من صنعك، لأن الله هو العامل فيك هذه الأعمال الصالحة "الله هو العامل فيكم أن تريدوا وأن تعملوا من أجل المسرة" (في ٢: ١٣) ..

(N. P. F. 1st. Ser. Vol 5P. 452)

وقال أيضاً: "هذه الأعمال الصالحة التي تقوم بها ونكافأ عليها ترجع أيضاً إلى عمل نعمة الله فينا إذ قال الرب يسوع "بدوني لا تقدرون أن تفعلوا شيئاً"

(1 bad P. 451)

ولقد قرر مجمع آرليس Arles الذي انعقد حوالي سنة ٤٧٣م. ما يلي: (لابد من أن يقتزن عمل الإنسان وسعيه بنعمة الله).

{مذكرات الكلية الإكليريكية - هرطقة بيلاجيوس ص ٢٩ للقمص باخوم المحرقى (نيافة الأنبا إغريغوريوس).

وما أجمل ما قاله القديس يوحنا ذهبي الفم (إن الحديث عن النعمة لا يقلل من شأن العزيمة البشرية وإنما يهدم روح الكبرياء. إذن لا تستسلم للكسل بحجة أن الكل هو بالنعمة، فإن الرسول يسمى الأعمال الصالحة أيضاً نعمة لأنها تحتاج إلى قوة علوية للقيام بها).

(N.P.Frs 1st. Ser Vol.X1 P. 345)

ثانياً :- التقديس

التقديس هو عملية مستمرة في حياة المؤمن تبدأ من وقت تبريره، وتستمر طيلة أيام حياته على الأرض. وفي الوقت الذي نرى فيه التقديس نعمة إلهية موهوبة، نرى في نموه يحتاج إلى مشاركة الإمكانات البشرية التي يستطيع الإنسان أن يقدمها من جانبه. فعندما نناقش هذين الجانبين.

١ - النعمة الإلهية

فالتقديس نعمة موهوبة من الله لكل المؤمنين فان مقامهم أمام الله قديسون يتضح من قول بولس الرسول لأهل روميه "إلى جميع الموجودين في روميه أحبائهم الله مدعوين قديسين" (رو ١: ٧). وقد علق على ذلك القديس يوحنا ذهبي الفم بقوله (هذا هو أعظم امتياز، ويظهر منه كيف تم التقديس. فيوضح أنه تم بالمحبة، إذ بعد أن قال الرسول (أحباء) قال (مدعوين قديسين) ليظهر أن المحبة هي مصدر التقديس. لهذا فهو يدعو جميع المؤمنين قديسين)

(N.P.F. 1st. Ser. Vol X1 P. 341).

ويكمل حديثه في هذا الموضوع عندما علق على قول الرسول (الله أبينا) في نفس الآية (رو ١: ٧). فيقول (عجباً ما أعظم حب الله، نحن الذين كنا أعداء، وكنا في خزي، أصبحنا فجأة at once قديسين وأبناء.. وبما أن القداسة والتبني هما هبة من الله فلا يمكن أن تزول حتى بالموت، وإنما تميز الإنسان على الأرض، وتصحبه في رحلته إلى الأبدية)

(1 bid P. 342)

وحيث أن المؤمن قد حسب له بر المسيح، فقد حسب له أيضاً قداسة المسيح. أي أن المسيح قد أصبح له (براً وقداسة) كما يقول بولس الرسول "ومنه أنتم بالمسيح يسوع الذي صار لنا حكمة من الله وبراً وقداسة وفداء" (١كو ١: ٣٠). وقد علق على هذه الآية القديس يوحنا ذهبي الفم بقوله: "هذا الشرف لم يكن مصدره الإنسان بل المسيح الذي صيرنا أبراراً وقديسين فهذا هو ما يعنيه بقول (صار لنا بر وقداسة).. فقد صيرنا أبراراً وقديسين بإعطائه لنا الروح القدس. فمن المسيح تصدر كل الأشياء".

(N. P.F. Vol, X11 P.24).

من هذا نرى أن المؤمن يعتبر قديس لا لأنه قديس في ذاته بل على أساس تبريره وحسبان قداسة المسيح له إذ يقول الرسول "فبهذه المشيئة نحن مقدسون بتقديم جسد يسوع مرة واحدة" (عب ١٠: ١٠).

والمؤمن قديس لأنه عضو في جسد المسيح، فقد تقدس بهذه العلاقة إذ يقول الرسول "لأننا أعضاء جسده من لحمه ومن عظامه" (أفسس ٥: ٣٠). ولهذا نقول في القداس الإلهي (القدسات للقديسين). {القداس الباسيلي}. وهناك عديد من الآيات تؤيد ذلك:

"إلى كنيسة الله التي في كورنثوس المقدسين في المسيح يسوع المدعوين قديسين. مع جميع الذين يدعون باسم ربنا يسوع المسيح في كل مكان لهم ولنا" (١كو ٢: ١).

وقد علق على هذا القديس يوحنا ذهبي الفم بقوله:

"يذكر الرسول الكورونثيين بنجاستهم التي خلصهم المسيح منها، ويقودهم إلى الاتضاع إذ يظهر لهم بأنهم لم يتقدسوا بأعمالهم الصالحة بل بمحبة الله المترفة".

(N.P.F. 1st. Ser, Vol X11 P. 3).

"بولس رسول يسوع المسيح بمشيئة الله إلى القديسين الذين في أفسس والمؤمنين في المسيح يسوع" (أف ١: ١).

وقد علق أيضاً على هذه الآية القديس يوحنا ذهبي الفم بقوله: (لاحظ أنه يدعو الرجال والسيدات والأطفال والعبيد قديسين، فهذه الفئات التي يدعوها قديسين قد وضحتها في نهاية الرسالة إذ يقول "أيها النساء اخضعن لرجالكن" (أف: ٥: ٢٢). وأيضاً "أيها الأولاد أطيعوا والديكم" (أف: ٦: ٩). وأيضاً "أيها العبيد أطيعوا سادتكم" (أف: ٦: ٥). فالعلمانيون أيضاً يدعون قديسون)

(N.P.F. 1st. Ser. Vol.X111 P. 50)..

هذا هو مقام المؤمن أمام الله، معتبر قديس في المسيح، لأنه أخذ مقام المسيح الذي قد أخذ كل موقف الإنسان المدان (إذ صار خطية لأجلنا) وأعطاه موقفه الكامل من بر وقداسة (لنصير نحن بر الله فيه) (وصار لنا بر وقداسة).

إن مقامنا السامي هذا لا يقودنا إلى الكبرياء، بل إلى التواضع إذ أن هذه الامتيازات لم يحصل عليها المؤمن بأعماله، وليست هي من ذاته، وإنما هي نعمة موهوبة مجاناً. لهذا قال القديس يوحنا ذهبي الفم (يقود بولس الرسول أهل كورنثوس إلى الاتضاع إذ يظهر لهم أن اعتبارهم قديسين ليس هو نتيجة أعمالهم الصالحة، بل نتيجة محبة الله المترفقة).

(N.P.F.1st. Ser. Vol 12. P. 3).

ويقول بولس الرسول أيضاً في هذا الصدد "أين الافتخار. قد انتقى. بأي ناموس (تبررنا) أبنا موس الأعمال؟ كلا. بل بناموس الإيمان" (رو ٣: ٢٤-٢٨).

ومقامنا السامي هذا هو مصدر تعزية وقوة مشجعة في نضالنا المقدس وحرينا الروحية. فإن من أكبر المفشلات، أن يشغلنا الشيطان بحالتنا الردية وحياتنا الضعيفة، ويحاول أن ينسينا مقامنا السامي في المسيح، فهذا كفيل بأن يؤدي إلى الخيبة والفشل.

كما أن هذا المقام السامي يقودنا إلى الحرص والحذر في كل ما نفتكر أو نتصرف أمام الله والناس، بما يتناسب مع مقامنا ويطابق مركزنا. وهذا هو المبدأ الذي يجب أن نسير عليه دوماً.

قصة:

بينما كان إحدى الأمراء ممتطياً جواداً له في حديقة القصر، عثر الجواد، فرقع الأمير من عليه، إلا أن الضابط الذي كان سائراً بجانبه تلقاه على زراعة، فلم يلحق الأمير أذى. نظر الأمير إلى الضابط الذي كان برتبة (صول) وقال له "أشكرك يا بك" فسمع الملك وأسرع في الحال لرؤية نجله وهنأه بنجاته، ثم سأله "ماذا قلت لمن أنقذك؟" أجاب الأمير "قلت له أشكرك يا بك" قال الملك "لقد منحتك لقب البكوية لأجل خاطرك. ولكن لا تتطرق فيما بعد بعبارة مثل هذه، لأنك أمير وولى عهد، وكل ما تقوله محسوب عليك. اذكر مقامك يا ابني" هذه نصيحة الملك لابنه "اذكر مقامك ومركزك" أي تكلم وتصرف بما يليق ومركزك السامي ومقامك الكبير. هذا ما يجب أن يتذكره كل مؤمن، فهو ابن الله بار وقديس في المسيح يسوع. فيجب أن يسلك بالقداسة في حياته العملية.

أما عن القداسة العملية في حياة المؤمن فهي أساساً من عمل المسيح في داخلنا بالروح القدس، كما يقول يوحنا ذهبي الفم "صيرنا المسيح أبراراً وقديسين بإعطائه لنا الروح القدس. فالمسيح هو مصدر كل شيء".

(N.P.F.1st. Ser. Vol.12 P. 24).

وقد أوضح الرب هذه الحقيقة قديماً بقوله "أنا الرب مقدسكم" (لا ٢٠: ٨).

وعمل النعمة في التقديس يشمل:

(أ) التجديد:

التجديد هو أول خطوة في التقديس، فلا يمكن أن توجد قداسة بدون تجديد القلب. فان محاولات تهذيب النفس العتيقة عملية فاشلة. لهذا لزم تجديد الطبيعة كلية. وهذا التجديد هو عمل النعمة البحث، إذ يقول الكتاب "لا بأعمال في بر عملناها نحن بل بمقتضى رحمته خلصنا بغسل الميلاد الثاني وتجديد الروح القدس" (تى ٣: ٥). وهذا التجديد يحدث كما هو واضح في المعمودية. ولكن بعد أن يخرج الإنسان من المعمودية يكون عرضة للسقوط وبهذا يعود قلبه إلى حالة الفساد بسبب الخطية الجديدة. ومن أجل ذلك يحذرنا بولس الرسول قائلاً: "من يفسد هيكل الله فسيفسده الله" (١كو ٣: ١٧). وبطرس الرسول أيضاً يقول: "هاربين من الفساد الذي في العالم بالشهوة." (٢بط ١: ٤).

وبناء على ذلك فقد قرر الآباء في مجمع قرطاجنة أن "دموع التوبة معمودية ثانية" أي أنها تجدد القلب من الفساد الذي لحق به بعد المعمودية. ومن أجل ذلك أيضاً رتبت الكنيسة أن نصلّى في كل صلاة من السبع صلوات اليومية قائلين في المزمور "قلباً نقياً اخلق في يا الله" (مز ٥١: ١٠).

فان كان قلبك قد أفسدته الخطية اطلب من الروح القدس أن يجدد مرة أخرى.

(ب) التطهير:

وهو تنقية النفس من شوائب الشرور وآثار الخطية، وهي عملية تستمر مع المؤمن مدى حياته على الأرض ويقوم بها الروح القدس نفسه لهذا فنحن نصلّى في القداس الإلهي قائلين "وصيرنا أطهاراً بروحك القدوس". [القداس الباسيلي - صلاة التقديس]

فان السر في عدم نقاوتنا أننا لم نسلم أنفسنا للروح القدس لكي ينقينا بالإيمان كما قال معلمنا بطرس الرسول "معطياً لهم الروح القدس إذ طهر بالإيمان قلوبهم" (أع ١٥: ٩). ولكن إذ نسلم ذواتنا للروح القدس يقوم هو بتطهيرها وتنقيتها حتى أن الخطية تصبح مكروهة جداً ومبغوضة ولا تطيقها نفسك.

ولقد صور هذه الحالة نيافة الأنبا إغريغوريوس بقوله "في حالة القداسة، التي أصبح إليها المولود من الله، تسمى الخطية غير مقبولة إليه، وتسمى مكروهة جداً لديه، وتسمى شنيعة في عينيه، وتصير عفنة وقذرة لا يقدر أن يتطلع إليها بعينه، خذ مثلاً لذلك قطعة من اللحم المتعفن. فحينما تكون هذه القطعة من اللحم يتحرك فيها الدود، ولها هذه العفونة، هل تقدر أنت أن تقبل إليها. بالطبع لا. لو أن واحداً قربها إلى فمك لأشحت عنها وجهك، وتريد أن تسد أنفك لأنك لا تقدر أن تقبلها، وقد تكون جائعاً ومع ذلك لا يمكن أن تقبلها ولا تستسيغها، ولا تقدر أنت أن تأكلها، وتسمى أنت غير قادر على أن تأكلها. فبهذه الشناعة تسمى الخطية شنيعة، تسمى الخطية مكروهة للإنسان المولود من الله، والذي يحتفظ بحالة الولادة من الله ويحتفظ ويصون وسائط الخلاص المعدة في الكنيسة. لو أن واحداً من الناس رأى شيئاً من المأكولات العفنة في المذبة، فهل يليق به أن ينحني ليأخذ من المذبة شيئاً ليأكله؟ ...

هذه هي مشاعر القديسين عندما يكونون في حالة الروحانية العادية إذ تصبح لهم الخطية مكروهة جداً.

[مفهوم الخلاص في الكنيسة الأرثوذكسية ص ١٩ للقمص باخوم المحرق الأنبا إغريغوريوس].

(ج) الملء:

إن حياة القداسة حياة دائمة النمو، فهي وإن كانت تبدأ عند التجديد، لكنها تنمو بالتدريج في اختبارات العمق. والملء هو المرحلة التي فيها يمتلك الروح القدس كلية زمام المؤمن، ويقناده عبر نهر الأعماق، نهر السباحة الذي لا يعبر، الذي خاض فيه حزقيال النبي ودون اختباره قائلاً: "وقاس ألف ذراع وعبرني في المياه والمياه

إلى الكعبين. ثم قاس ألفاً وعبرنى في المياه والمياه إلى الركبتين. ثم قاس ألفاً وعبرنى والمياه إلى الحقوين. ثم قاس ألفاً وإذا بنهر لم أُنستطيع عبوره. لأن المياه طمت. مياه سباحة نهر لا يعبر " (حز ٤٧: ٣-٥).

آه يا أخي ليتك تختبر عمل النعمة هذا المبارك. إنك في الميرون قد أصبحت مسكناً للروح القدس الذي حل فيك بالسر. ولكنك قاومت الروح مراراً (٥١: ٧٤١) وأحزنت الروح أيضاً (٣٠: ٤) وربما يا أخي تكون قد أطفأت الروح من داخلك. (١٩: ٥). إن هذه الموهبة التي أخذتها عندما تضرمتها (٢: ١) في الداخل تتعشك وتمتلك حياتك ملكية تامة.

هل أنت مشتاق إلى عمق هذا الاختبار، إذن ارفع صوتك مرناً...

لقد تشوقت لقد تعطشت
لهذا ربي رجوت أدخل إلى العمق
خذني إلى العمق خذني إلى العمق
نهر سباحة لا يعبر هذا هو العمق

هذا هو الروح الناري الذي أشتاق الأنبا أنطونيوس أن يحصل تلاميذه عليه فقال لهم:

"ذلك الروح الناري العظيم الذي قبلته أنا اقبلوه أنتم أيضاً .. اطلبوا باستقامة قلب هذا الروح الناري وحينئذ يعطي لكم بالصلاة .. وهو يكشف لكم الأسرار العلوية، وأشياء أخر أمسك عن قولها، ويكون لكم فرح سماوي ليلاً ونهاراً." {حياة الصلاة الأرثوذكسية ص ٢٤ نشر دير السريان}

هذا هو عمل النعمة في حياة المؤمن. فبدون النعمة لا يستطيع أن يسير مع الله أو أن ينفذ وصاياه ولقد حرمت المجامع الكنسية كل من يقلل من شأن النعمة. وقبل أن أعرض قرارات هذه المجامع، أناجيك من كل قلبي أن تخضع ذاتك تحت إرشاد الروح القدس وتطلب من الله أن يسكب نعمته فيك حتى تتجو من الهلاك. واليك قرارات بعض تلك المجامع:

١- مجمع قرطاجنة:

المنعقد سنة ٤١٧م وحضره (٢٠٠) أسقفاً.

(من قال أن نعمة الله التي بها يتبرر الإنسان بواسطة يسوع المسيح ربنا لا تقيد إلا في غفران الخطايا التي ارتكبت بالفعل، وأنها لا تعين في منع ارتكاب الخطايا، فليكن محروماً. فمن هذا يتضح أن المجمع يقرر بأن النعمة تعمل على غفران الخطايا وتعين في منع ارتكابها ومن يقول غير ذلك فهو محروم.

من قال بأن هذه النعمة .. تعيننا فقط لكي نتجنب الخطية ... وأن بها قد أعطينا .. فهما لوصايا الله .. ولكنها لا تمنحنا أيضاً اللذة في فعل ما عرفنا .. ولا القوة لفعله، فليكن محروماً.

وبهذا يقرر المجمع أن النعمة تعين في تجنب الخطية، وتعطي فهما للوصية، وتمتع لذة في السلوك بالروح، وتهب قوة لذلك. ومن يقول غير ذلك فيكون محروماً.

ومن قال أن نعمة التبرير أعطيت لنا حتى يمكن أن نفعل بالنعمة ما أمرنا بفعله .. وأنه كان يمكننا أن ننتم تلك الوصايا بدون هبة النعمة .. فليكن محروماً.

وبهذا يقرر المجمع أيضاً أن النعمة تبرر، وتعين في تنفيذ وتنظيم الوصايا ومن يقول غير ذلك فهو محروم. وبهذا فقد نصوا على وهنية (ضعف) الإرادة الإنسانية إذا كانت بغير عون من نعمة الله وأننا في حاجة أساسية وحيوية إلى النعمة لنتمكن بها من إتمام وصايا الله).

{مذكرات الكلية الإكليريكية الأرثوذكسية - لاهوت مقارن - هرطقة بيلاجيوس "للقمص باخوم المحرقى" ص ٢٧ إلى ٢٩}.

٢- مجمع آرليس Arles

الذي انعقد حوالي ٤٧٣م أصدر التصريح التالي: "لا بد من أن يقترن عمل الإنسان وسعيه بنعمة الله" {المرجع السابق ص ٣٧}.

٣- مجمع أورانج Orange

الذي عقد حوالي ٥٢٩م من بين ما قرره هذا المجمع ما يلي: "أنه عن طريق خطية الإنسان الأول إلتوت حرية الاختيار وضعفت حتى لم يعد أي إنسان بعد ذلك قادراً على أن يحب الله كما ينبغي أو يؤمن بالله أو يصنع شيئاً صالحاً من أجل الله إلا إذا سبقته نعمة (رحمة) الله".

{المرجع السابق ص ٤١}

هذه هي أقوال الآباء القديسين صريحة واضحة لا تحتاج إلى تعليق. يستد أمامها فم الهرطقة من ينكرون عمل النعمة لكي تتال رحمة وتجد نعمة عوناً في حينه" (عب ٤: ١٦).

لهذا فليس بعجيب أن نرى القديس أوغسطينوس ذلك الرجل الذي اختبر عمل النعمة يكتب كلاماً اختبارياً فيقول:

دعنا نعترف أن النعمة ضرورية لنا، ولنصرخ مع بولس الذي قال: "ويحي أنا الإنسان الشقي من ينقذني من جسد هذا الموت؟" هذا سؤال حائر، وإجابته: نعمة الله بالمسيح ربنا هي التي تنقذنا"

(N.P.F.1st. Ser. Vol.5 P. 142)

وقال أيضاً: عندما يصلي المؤمنون يقولون "لا تدخلنا في تجربة لكن تجنا من الشرير" (مت ٦: ١٣). فان كان لهم القدرة فعلاً على خلاص، فلماذا يطلبون هذه الطلبة.. إن نعمة الله وحدها هي التي تخلصهم بربنا يسوع المسيح.. فلا يمكن للإنسان أن يتحرر من شهواته الجسدية إلا بنعمة المخلص.

(1 bid P. 142).

كان هذا عن جانب النعمة الإلهية في تقديس المؤمن ولنتنقل إلى الجانب البشري لنرى ما يستطيع أن يقدمه المؤمن من:

٢- الإمكانيات البشرية

لكي نعيش في القداسة العملية يجب أن نقدم كل إمكانياتنا البشرية وإرادتنا الشخصية تحت تصرف الروح. فلكي يقوم الروح بعمليات: التجديد والتطهير والملء، على الإنسان من جانبه واجب مثلث أيضاً هو: الأمانة، والاعتزال، والتكريس.

(أ) الإماتة:

أي صلب الذات. فان عملية التجديد التي يقوم بها الروح القدس داخلنا إنما هي في حقيقتها عملية إماتة لذاتك القديمة ليضع عوضاً عنها ذات جديدة. هي صلب الذات ليحيا المسيح كما يعبر معلمنا بولس الرسول قائلاً: "مع المسيح صلبت فأحيا لا أنا بل المسيح يحيا في" (غل ٢: ٢٠).

وعملية التجديد هذه التي يقوم بها الروح القدس لا بد وأن يقابلها من جانبك عملية أخرى وهي إماتة أعضائك "أميتوا أعضائكم التي على الأرض الزنا النجاسة الهوى الشهوة الردية الطمع..". (كو ٣: ٥). ولهذا يقول بولس الرسول أيضاً "الذين هم للمسيح قد صلبوا الجسد مع الأهواء والشهوات" (غل ٥: ٢٤). ويشير إلى ذلك أيضاً في موضع آخر فيقول "احسبوا أنفسكم أمواتاً عن الخطية" (رو ٦: ١١).

حقيقة نحن في المعمودية قد متنا مع المسيح، إذ يقول بولس الرسول "أم تجهلون أننا كل من اعتمد ليسوع اعتمدنا لموته فدفنا معه بالمعمودية للموت حتى كما أقيم المسيح من الأموات بمجد الآب هكذا نسلك نحن أيضاً في جدة الحياة. لأنه إن كنا قد صرنا متحدين معه بشبه موته نصير أيضاً بقيامته. عالمين هذا أن إنساننا العتيق قد صلب معه ليبطل جسد الخطية كي لا نعود نستعبد أيضاً للخطية" (رو ٦: ٣-٦). هذا ما يحدث في المعمودية. إماتة وقيامه في جدة الحياة ... ولكن إذ يعود الإنسان للخطية يسقط الإنسان مرة أخرى تحت عبوديتها ... ويعود الإنسان العتيق لسابق حياته، من أجل ذلك يحذرنا بولس الرسول قائلاً: "إذا لا تملكن الخطية في جسدكم المائت لكي تطيعوها في شهواته ولا تقدموا أعضاءكم آلات للخطية" (رو ٦: ١٢).

لهذا لزم أن تكون عملية الصلب والإماتة مستمرة بالتوبة الدائمة والسهر حتى لا تسمح للذات أن تعود ثانية للظهور بل يكون المسيح هو الكل في الكل. ورب سائل يقول: كيف أصلب ذاتي؟! لكي نوضح هذا الأمر أسوق لك الصورة التي تخيلها أحد رجال الله.

أنى سمريت ذاتي على الصليب كأني أخذت حياة الذات بكل رغباتها، وأميالها، ومطامعها للشهوة والكمال، وتقلباتها، وحكمها على الآخرين، وبغضها، أخذتها كمجرم وقلت أنت ملعونة. يجب أن تموتي. إلهي قد سمرتك على الصليب. وإني أضعك هناك باختياري وبمحض إرادتي بالإيمان وسأتركك معلقة هناك".

فعلى الإنسان أن يسلم الذات باختباره للمسيح حتى يصلبها، وهو الذي يقوم بدور إماتتها ... ثم اسلك في الحياة حاسباً نفسي ميتاً "احسبوا أنفسكم أمواتاً عن الخطية" (رو ٦: ١١). فان حاولت الخطية أن تتجاذب أطراف الحديث معك لكي تسقطك في حبالها، لا تجاوبها لأنك ميت. لا تتفاوض مع الشيطان بل اعتبر نفسك ميتاً. لا يغرنك العالم لأنك قد حسبت نفسك مائتاً. ولا يقتصر عملك على هذه النواحي السلبية بل تتجه بقلبك في الحال إلى شخص الرب يسوع الساكن فيك وقل له:

حام عنى يوم تأتى الريح بالموج العنيف
في ظلام الليل ربي واحمني
وأمر الريح وموج البحر طراً بالوقوف
بل تعال يا حبيبي عزيني

إن المسيح لا يمكن أن أن يملك على عرش القلب إن لم تمت الذات، فسلمها له حتى يصلبها ويميتها "لكي تظهر حياة يسوع في جسدنا المائت". (٢كو ٤: ١١).

(ب) الاعتزال:

إن عملية التنقية الداخلية التي يقوم بها الروح القدس يقابلها عمل آخر من جانب المؤمن وهو الاعتزال عن مجال الخطية ومسبباتها. فهذا هو أمر الرب لشعبه "اخرجوا من وسطهم واعتزلوا يقول الرب ولا تمسوا نجساً فأقبلكم وأكون لكم أبا وأنتم تكونون لي بنين وبنات يقول الرب القادر على كل شيء" (٢كو ٦: ١٨). لكن واأسفاه لقد اختلط أبناء الله بأهل العالم وما عدنا نميز بينهم، حتى أن الله اشتكى من هذه الحالة فقال: يا ابن آدم قد صار لي بيت إسرائيل زغلاً. كلهم نحاس وقصدير وحديد ورصاص في وسط كور. صاروا زغلاً فضة". (حز ٢٢: ١٨).

وقديما وقف ايليا وقفته التاريخية وكلم الشعب وقال "حتى متى تعرجون بين الفرقتين. إذ كان الرب هو الله فاتبعوه وإن كان البعل فاتبعوه" (١مل ١٨: ٢١). فكن مثل ايليا لنفسك لتحديد موقفها واعتزل عن العالم ومحبة المال والشهوات، وأصدقاء السوء، والأماكن المعثرة لتتيح للروح فرصة تنقية قلبك من الداخل.

هذا هو الجانب السلبي أي تعتزل عن مجال الخطية. ولكن هناك جانب إيجابي وهو الوجود في حضرة الله ومجال النعمة.

لهذا فقد أوصى بولس الرسول تلميذه تيموثاوس قائلاً: "أما الشهوات الشبابية فاهرب منها واتبع البر والإيمان والمحبة والسلام مع الذين يدعون الرب من قلب نقي" (٢تى ٢: ٢٢).
فعندما تنتشبع نفسك بالنعمة تدوس على الخطية التي كانت كالشهد في حلقك وهكذا يقول الحكيم "النفس الشبعاة تدوس العسل" (أم ٢٧: ٧).

(ج) التكريس:

هو التسليم الكامل ومعناه أن تكون إرادتنا كما يريد الرب. ويأتي هذا عندما نعتبر أننا لسنا ملكاً لأنفسنا بل للمسيح كما يقول الرسول "أنتم لستم لأنفسكم لأنكم قد اشتريتم بثمن. فمجدوا الله في أجسادكم وفي أرواحكم التي هي لله." (١كو ٦: ٢٠).

إن التكريس للقداسة لازم كلزوم التوبة للتبرير. فمن جانب الله تعمل النعمة فينا بسكب الروح القدس ليملاًنا، ومن جانبنا علينا أن نسلم القلب بالكامل لله لنحصل على الملء. إن كنت تريد تكريساً كاملاً اركع وقل "ضع يارب شوكة في كل متعة، ودودة في كل يقطينة تمتعني أو تعوق تكريس قلبي لك."

المفتاح الصغير:

تقابل خادم مع رجل مختبر وممتلئ من الروح القدس فقال لاحظت شيئاً غريباً فيه، لم أكن حاصلاً عليه، الأمر الذي كان له منبعاً للراحة والقوة والفرح الدائم. ولم أنس منظرأ رأيته في الساعة ٧ صباحاً. بينما كان نور النهار يتسرب إلى غرفة نومه. رأيت الكتاب المقدس مفتوحاً أمامه وهو يقرأه على ضوء شمعة. وبعدما تناول الفطور، مشينا معا وتحدثنا على هذا النحو. قلت له "لقد لاحظت أنك استيقظت مبكراً اليوم" قال "نعم إني قد استيقظت في الساعة الرابعة. لأن سيدي المسيح يعرف عندما أنام كفاية أن يوقظني ليكون لي شرف الشركة معه" سألت "وماذا كنت تعمل؟" أجاب "تعرف أن المسيح قال إن أحبني أحد يحفظ كلامي" وأنا أطلع الكتاب كل صباح حتى أرى كم أنا أحفظ من وصاياه وكم مقدار محبتي له" سألته "وهل صرفت كل هذا الوقت من الرابعة إلى ما بعد السابعة صباحاً في مطالعة الكتاب؟" قال "نعم صرفتها في مطالعة الكتاب والصلاة" سألته "وكيف أكون نظيرك؟" أجاب "هل فتحت قلبك للمسيح لكي يملأك من شخصه؟" قلت "نعم إني فتحت قلبي له بطريقة عامة. ولست أظن أني فعلت هذا بطريقة خاصة" قال "عليك أن تفعل هذا بكيفية خاصة".

وفي مخدعي ركعت على ركبتي في تلك الليلة. وافكرت أني أقدر أن أسلم نفسي للمسيح بسهولة. أعطيته حلقة حديدية مملوءة مفاتيح، حلقة مفاتيح إرادتي مع كل مفاتيح حياتي، بعد أن انتزعت منها مفتاحاً واحداً صغيراً وضعته في جيبتي، فسألني الرب "هل هذه كل المفاتيح؟" أجبت "نعم يارب قد أعطيتك الكل إلا مفتاحاً واحداً صغيراً، وهو مفتاح غرفة صغيرة في قلبي يجب أن أكون أنا المسيطر عليها" قال الرب "إذا كنت لا تأتمني على الكل فأنت لا تأتمني بالمرة." وحاولت أن أنتحل لنفسي أعذاراً وأقدم شروطاً للرب. قلت "يا سيدي الرب إني نستعد أن أكرس لك كل شيء آخر. فقط أنا لا أقدر أن أعيش بدون محتويات هذه الغرفة" في ذلك الوقت كنت كمن يعرج بين الفرقتين. فلو أنني امتنعت عن تسليم مفتاح تلك الغرفة ما كان باركني الرب أو بارك خدماتي. أراد أن يتركني، إلا أنني بادرت ودعوته وقلت "يارب أنا لست راضياً لكني أريد أن تجعلني راضياً" تقدم إليّ واقتررب مني ثم تناول المفتاح الصغير من يدي، وذهب توا إلى الغرفة المحبوبة وفتحها. عرفت ما سيحدث هناك كما عرف هو أيضاً. وفي الحال نظف تلك الغرفة نظافة تامة، ولم يتركها فارغة، بل ملأها بشيء آخر أفضل. عندئذ أدركت مقدار غباوتي وجهلي. إنه أراد أن يزيل الجواهر المزيفة، ليعطيني بدلاً عنها جواهر حقيقية وثمينة. لقد نقاها مما أتلف حياتي، وعوض ذلك أعطاني نفسه. من ذلك الوقت صار الرب متكلي وسندي وكان تكريسي الكامل شرطاً ضرورياً وأساسياً لنوالي كل بركاته واختبار قوته الحافظة".

اختبار راهب:

سجل راهب من الكنيسة الشرقية اختباراً جميلاً فقال:

كثيراً ما يبدو يسوع سجيناً في نفسي، وكأنه بلا حراك تماماً كما كان في القبر قبل القيامة. وحجر خطاياي الكبير يجعله هكذا، كم من مرة اشتاقت نفسي أن تري يسوع قائماً في نوره وقوته! كم من مرة حاولت أن أدرج الحجر ولكن بلا جدوى! إن ثقل الخطية مع ثقل العادات المرتبطة بها كان أقوى جداً.. وكثيراً ما قلت لنفسي في بأس: من يدرج الحجر؟".

والآن.. لقد وجدت النسوة أن الحجر قد دحرج بطريقة لم يتوقعنها، "حدثت زلزلة لأن ملاك الرب نزل من السماء ودحرج الحجر". (مت ٢٨: ٢).

فلكي يتدحرج الحجر لا بد من معجزة مروعة - زلزلة! لأن مجرد رفعه أو إزاحة بسيطة لن تكون كافية. هكذا أيضاً ذلك الحجر الذي يبدو أنه يشل حركة يسوع في يحتاج إلى زلزلة أي إلى انقلاب باطني عنيف، وتغيير جذري كامل. فالأمر يحتاج إلى قذيفة من النور لتنهزني، وهكذا يقوم المسيح في إذ يختفي إنساني العتيق ليعطي مكاناً للإنسان الجديد. وهذا الأمر يتعدى التعديل والتنظيم إذ يستلزم موتاً ثم ولادة. {كتاب حوار مع مخلص ص ١٤٥}

القلعة الأخيرة:

إن من يقدم على عمل التكريس الحقيقي يساعده الله بأن يعمل فيه شيئاً فشيئاً إلى أن يلاشى حياة الذات منهم. وفي الغالب تتركز كل قوي الذات في نقطة وتتأصل وتصير كقلعة. وعندما تقهر تلك النقطة وتسلم تلك القلعة حينئذ تأتي النصر. كان يمكن أن يكون إبراهيم راعياً في تسليم كل شيء، ولكن إذ لم يكن قد سلمه، فكل الأشياء التي سلمها تعد كلاً شيء. فإله يريد اسحق حياتنا.

وعزياً الملك كان القلعة الأخيرة في حياة أشعيا النبي لتعلق أشعيا به، وفي السنة التي مات فيها عزياً رأى أشعيا مجد الرب. فلا بد أن يموت عزياً العزيز في قلبك.

كثيرون من المسيحيين يظلون متمسكين بشيء عزيز في حياتهم بينما الروح القدس يطلب منهم تركه حتى يحصلوا على البركة، ربما يكون الشيء الذي تمسكه عن المسيح زهيداً جداً، وتقول أن الله لا يطلب هذا الأمر الزهيد، ولكن هذا الأمر الزهيد هو القلعة التي تحصنت فيها الخطية، وسيظل هذا الأمر الزهيد علة النزاع والصراع في حياتك. ربما يكون هذا الشيء الزهيد هو اهتمامك بنوع من أنواع الزينة يا أختي، أو التمسك بعادة معينة يا أخي تصر على الاستمرار فيها، أو صلة مع آخرين لا تريد قطعها. ولسان حالك يقول استلم يارب كل شيء، ولكنك تحتفظ بهذا الأمر البسيط لأنك تحبه وتتعلق به، ولكن اسمع ماذا يقول المرنم: "إن راعيت إثماً في قلبي لا يستمع لي الرب" (مز ٦٦: ١٨).

ولكن أعلم يا أخي أنه قبل مجيء البركة يجب أن يكون هناك تسليم تام كامل بدون قيد أو شرط. قال أحد القديسين "اترك الكل تأخذ الكل". عندما تسلم الإرادة القلعة الأخيرة حينئذ يحل المسيح بملء حياته بدل حياة الذات القديمة، فيؤكد المؤمن حينئذ أنه ميت عن الخطية وحي في الله بالمسيح يسوع.

خلاصة:

رأيت يا أخي شقيّ التقديس فالإنسان يقبل باختياره إماتة ذاته، ويعتزل عن مجالات الخطية، ويقبل تكريس نفسه للمسيح، فهو بهذا العمل الثلاثي الاختياري يسلم نفسه لله. والله من جانبه يعمل فينا مقدساً ذواتنا، فيعطينا القلوب الجديدة التي تبغض الخطية وتحقرها، وتحب المسيح وتتعلق به، ثم ينقي ذواتنا من شوائب الشرور، ويسكب فينا روحه القدوس ليتسلم قيادة حياتنا في موكب النصر. "فشكراً لله الذي يقودنا في موكب نصرته في المسيح كل حين ويظهر بنا رائحة معروفة في كل مكان" (٢ كو ٢: ١٤).

إيضاحات هامة:

بعد أن عرفت هذا بخصوص القداسة يجب أن نستوضح بعض النقاط حتى لا تفشل في حياتك. وهذه النقاط هي القداسة والعصمة، ثم القداسة والتجربة.

١- القداسة والعصمة:

لا تظن يا أخي أن القداسة هي العصمة من الخطية، فلا يوجد سوى الله وحده المعصوم منها. أما القداسة فهي الحالة التي يكون فيها المؤمن محصناً بقوة الله ضد الوقوع في الخطية كما يقول بطرس الرسول "أنتم الذين بقوة الله محروسون" (١بط ٥: ١). ولكنه بلا شك هو معرض للسقوط في أية لحظة إن تهاون في حياته، أو نظر إلى وراثته.. فان أسمى درجات النعمة لا تجعل الإنسان غير قابل للسقوط... فمهما وصلنا من درجات الاختبار في النعمة، فان إمكانية الوقوع في الخطأ ملازمة لطبيعتنا، إلى أن نخلص من هذا الجسد الفاسد بمجيء الرب يسوع في مجده ويغير أجسادنا.

وتعرضنا للسقوط ناتج من أن الله عندما قدسنا وجدد قلوبنا لم يسلبنا حرية الإرادة وإلا أصبحنا كالحيوان. فحيث أن إرادتنا موجودة فينا إذن فالإرادة معرضة لقبول عروض الشيطان بالخطية وما لم يحذر المؤمن ويظل مخضعاً لإرادته لإرادة الله، ومشيتته لمشية سيده، يعرض نفسه لخطر السقوط في الخطية، ويحتاج الأمر إلى إعادة خطوات التقديس معه. وجميل جداً أن تعرف أنه من صفات القداسة أنك إن سقطت تقوم في الحال وتنتفض، وتعود إلى حضن أبيك، ولسان حالك يقول للخطية "لا تشمتي بي يا عدوتي إذا سقط أقوم. إذا جلست في الظلمة فالرب نور لي.. سيخرجني إلى النور سأنظر بره. وترى عدوتي فيغطيها الخزي" (مخا ٧: ٨-١٠). تقوم وتأتى إلى الله عالماً أن لك في دم الصليب كفارة، وفي قلب يسوع مكانة.

٢- القداسة والتجربة:

إذ أن القداسة ليست هي العصمة من الخطية، لهذا فالمؤمن معرض للتجربة مهما حصل على اختبارات النعمة، ومهما نما في معرفة مخلصه ومهما تقدم إلى الأمام في حياته الروحية.

والتجربة هي عرض الخطية على المؤمن لمحاولة إسقاطه فيها. وليس في ذلك خطية إن كان المؤمن لا يستجيب لهذا العرض بل يرفضه. وهناك تجارب أخرى يشنها إبليس ضد أولاد الله. ومن هنا نجد أن حياة المؤمن هي حرب دائمة مع قوي الشر. وهذه الحرب على مرحلتين.

(أ) مرحلة أولية:

(وهي الحرب الداخلية) في بداية حياة المؤمن الروحية. وتكون الحرب عنيفة والصراع مرير. صورها نيافة الأنبا إغريغوريوس أسقف الدراسات العليا والبحث العلمي يقول: (لاحظوا أن الكلام الذي قاله الرسول بولس "الروح يشتكى ضد الجسد والجسد ضد الروح". فانه يصف فيه مرحلة أولية من حياة التوبة ليعبر فيها الرسول عن مرحلة (التماس) بين حالة الخطية وحالة التوبة. هذه هي المرحلة التي يكون فيها الإنسان قد خرج من حالة الخطيئة ودخل في حالة النعمة. هنا في هذه المرحلة يكون الإنسان في حالة حرب شديدة، قوة تشده من هنا وأخرى تشده من هناك. إنما هذه الحالة لا تستمر طويلاً، هذا النزاع بين الروح والجسد لا يستمر طويلاً بل شيئاً فشيئاً يبدأ الإنسان في حالة النعمة ودخوله في دائرة الفضيلة يعلو شيئاً فشيئاً عن مرحلة التماس، ويعلوا على مرحلة الصراع. ولا تكون الخطية بعد جذابة ولا يكون لها إغراء. وقد تحاول الخطيئة أن تدخل إلى حياة النقي أو القديس ولكن عن بطريقة غير واضحة – تدخل إليه مستورة. تدخل إليه لابساً غير لباسها، لأن يوم تدخل الخطية بلباسها الحقيقي تكون شنيعة جداً في نظر القديسين). (مفهوم الخلاص في الكنيسة الأرثوذكسية ص ٢٠٩، ٢٠٩ نيافة الأنبا إغريغوريوس).

(ب) مرحلة متقدمة:

(وهي الحرب الخارجية) وهي وإن كانت في مظهرها أعنف من الأولى، إلا أنها في حقيقتها أهون منها، لأن ميدانها خارج حدود النفس إذ انتقل العدو إلى خارج وأصبحت هجماته كصرخات اليأس. وتتخذ الحرب صورة أخرى، فبعد أن كانت في المرحلة الأولى محاربات شهوة وخطية، تكون في هذه المرحلة (أي الحرب الخارجية)

عبارة عن اضطهادات، ومضايقات وشدائد.. وربما تصل إلى الضرب والسجن وقتل الجسد.. وهي في صورتها صعبة ولكن في حقيقتها هينة ولذيذة جداً لنفس المؤمن لأنها من جهة فهي لا تمس الروح، ومن جهة أخرى هي شركة آلام رب المجد. فيولس الرسول يقول "لأعرفه وقوة قيامته وشركة آلامه منتشبة بموته لعلني أبلغ إلى قيامة الأموات" (في ٣: ١٠). ولهذا نراه يقول "ذلك أسر بالضعفات والشوائم والضروريات والاضطهادات لأجل المسيح". (٢كو ١٢: ١٠).

وقد تكلم أيضاً نيافة الأنبا إغريغوريوس أسقف الدايات والبحث العلمي فقال: (وربما يصل الإنسان في حالة الفضيلة إلى مرحلة معها تسقط عنها الحرب الداخلية لكن ليس معنى ذلك أن الإنسان يصل إلى مرحلة تسقط عنه كل الحروب، فالروحانيون حربهم في الغالب أصبحت حرباً خارجية. بعد أن يكونوا بالمجاهدات الروحية قد طردوا الشهوات من حياتهم ووصلوا إلى مرحلة الاتحاد بالله، وبعد أن يكونوا قد وصلوا إلى الإمامة بأن يموت الإنسان عن نفسه ويصل إلى المرحلة التي عبر عنها الرسول "فأحيا لا أنا بل المسيح يحيا في" يكون قد مات بمعنى الإمامة الجسمية، هذه الإمامة، فعل الإمامة معناه أن يموت الإنسان نهائياً عن رغباته فتسقط عنه كل شهوة وتصبح إرادة الله هي إرادته ومشية الله هي مشيئته وتصبح شهواته كلها صالحة. إن كبار الروحانيين يصلون إلى هذه المرحلة فمعها تسقط الحرب الداخلية ولكن مع هذا تكون هناك حرب من الخارج. والشيطان يحاربهم عن طريق مشورات خارجية لكنها قد لا تكون لها أثر عليهم، وأيضاً عن طريق الاضطهادات، أو عن طريق الحروب، أو عن طريق المعاكسات من الناس، أو معاكسات من أي قوة خارجية، أو أنواع من الضيق والشدائد التي يقعون فيها، أو أنواع من الظلم الذي يصيبهم من الناس. ممكن أن يصل كبار الروحانيين إلى مرحلة معها تسقط عنهم الحروب الداخلية أو على الأقل تقل جداً إلى الدرجة التي تصبح معها تكاد أن تكون معدومة... ولكن مرة أخرى لا يفهم هذا أن الإنسان يصل إلى حالة العصمة). {المرجع السابق صفحة ٢١، ٢٠}.

هذا عن عمل النعمة في المرحلة الثانية من حياة المؤمن وهي التقديس. بقي أن نعرف المرحلة الثالثة عن عمل النعمة وهي:

ثالثاً:- التمجيد

يقول معلمنا بولس الرسول "متى أظهر المسيح حياتنا فحينئذ تظهرون أنتم أيضاً معه في المجد" (كو ٣: ٤). هذا هو التمجيد الذي سيحصل عليه المؤمن بالنعمة يوم ظهور الرب، حيث يتم قول الرسول "الذين برهم فهو لاء مجدهم أيضاً" (رو ٨: ٣٠). هذا هو الرجاء الذي ينتظره المؤمن على أحر من الجمر "منتظرين الرجاء المبارك وظهور مجد الله العظيم ومخلصنا يسوع المسيح" (١٣: ٢). يوم يأتي ليخطف المؤمنين "لأن الرب نفسه بهتاف بصوت رئيس ملائكة وبوق الله سوف ينزل من السماء والأموات في المسيح سيقومون أولاً. ثم نحن الأحياء الباقين سنخطف جميعاً معهم في السحب لملاقاة الرب في الهواء. وهكذا نكون كل حين مع الرب" (١٨: ٤). (١٨: ٤). في ذلك اليوم تكون عطية النعمة لنا:

أجساد غير فاسدة:

فهذا الجسد الفاسد الذي كان سبب متاعبنا في نضالنا المرير ضد الخطية سيتغير إلى جسد غير فاسد. هذا ما وضحه بولس الرسول بقوله "هو ذا سر أقوله لكم. لا نرقد كلنا ولكننا كلنا نتغير في لحظة في طرفة عين عند البوق الأخير. فانه سيبوق فيقام الأموات عديمي فساد ونحن نتغير. لأن هذا الفاسد لا بد أن يلبس عدم فساد. وهذا المائت يلبس عدم موت. ومتى لبس هذا الفاسد عدم فساد ولبس هذا المائت عدم موت فحينئذ تصير الكلمة المكتوبة ابتلع الموت إلى غلبة... ولكن شكراً لله الذي يعطينا الغلبة بربنا يسوع المسيح" (١كو ١٥: ٥١-٥٧).

أجساد ممجدة:

فأجسامنا هذه الترابية الفاسدة التي ألبستنا الهوان ستتغير إلى أجساد ممجدة، إذ يقول الرسول "إن سيرتنا نحن هي في السموات التي منها ننتظر مخلصنا هو الرب يسوع المسيح الذي سيغير شكل جسد تواضعنا ليكون على

صورة جسد مجده" (في ٣: ٢١). ويقول أيضاً "يزرع في فساد ويقام في عدم فساد. يزرع في هوان ويقام في مجد" (١كو ١٥: ٤٢).

أجساد روحانية:

نحن الآن في أجساد مادية حيوانية، ولكن في ذلك اليوم ستكون أجسادنا روحانية كما قال الرسول بولس "يزرع جسماً حيوانياً ويقام جسماً روحانياً. يوجد جسم حيواني ويوجد جسم روحاني ... لكن ليس الروحاني أول بل الحيواني وبعد ذلك الروحاني." (١كو ١٥: ٤٤).

٤- أجساد كجسد المسيح السماوي:

يقول يوحنا الحبيب "أيها الأحباء الآن نحن أولاد الله ولم يظهر بعد ماذا سيكون. ولكن نعلم أنه إذا أظهر نكون مثله لأننا سنراه كما هو" (١يو ٣: ٢). ويضيف بولس الرسول قائلاً "كما لبسنا صورة الترابي (آدم) سنلبس أيضاً صورة السماوي (المسيح)" (١كو ١٥: ٤٩).

هذا هو عمل النعمة البحت ولا دخل للإنسان في ذلك، فالرب نفسه هو الذي سيغير أجسادنا يوم مجيئه بعمل نعمته ولهذا يقول معلمنا بطرس الرسول "فالقوا رجاءكم بالتمام على النعمة التي يؤتى بها إليكم عند استعلان يسوع المسيح" (١بط ١: ١٣).

وعندما نلبس الأجساد غير الفاسدة الممجدة الروحانية التي هي كجسد المسيح السماوي نستطيع أن نتمتع بشخصه المبارك وبالحياة معه في المجد.

هذا هو عمل النعمة الفائقة. (١كو ٩: ١٤). من تبرير وتقديس وتمجيد "فشكراً لله على عطيته التي لا يعبر عنها" (١كو ٩: ١٥).

مجال النعمة

"لأن المسيح إذ كنا بعد ضعفاء مات ... لأجل الفجار"
(رو ٥: ٦)

أولاً :- دائرة الأشرار.
ثانياً :- دائرة الضعفاء.

قد تقول في نفسك أنى غير مستحق لنعمة الله لأنى خاطئ وشرير. وربما يقودك هذا الفكر إلى الابتعاد عن عمل النعمة وعدم الانتفاع ببركات الفادي. ولكن اعلم يا أخي بهذا الشعور أنت في مجال عمل النعمة. وإليك توضيحاً لهذه المجالات:

أولاً :- دائرة الأشرار

من الخطأ أن تظن بأن عمل النعمة قاصر على الأبرار والقديسين. ولكن اعلم أن النعمة لا تعمل إلا في وسط الأشرار والفجار. أما أولئك الأبرار في أعين أنفسهم، فالنعمة بعيدة كل البعد عنهم ما لم يقرروا أنهم خطاة محتاجين إلى نعمة الله. وفي مثل الفريسي والعشار نري هذه الحقيقة واضحة بكل جلاء. فالفريسي كان باراً في عيني نفسه وأخذاً يعدد أعمال بره من أصوام وصدقات وتقوى.. ولكنه مسكين لم ينتفع بنعمة الله. أما العشار الخاطئ فوقف شاعراً بخطيته واحتياجه إلى النعمة قائلاً "اللهم ارحمني أنا الخاطئ". فذهب إلى بيته مبرراً. (لو ١٨: ١٣).

فمجال النعمة المخلصة هو دائرة الأشرار، فقد قال السيد "لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب بل المرضى ... لأنى لم أت لأدعو أبراراً بل خطاة إلى التوبة" (مت ٩: ١٣). فلا تظن أنك لا تستحق النعمة لأنك شرير، فالواقع أنه لا أحد يستحق النعمة إلا الشرير الذي يشعر بأنه فاجر "ويؤمن بالذي يبرر الفاجر" (رو ٤: ٥). وما أعجب ما قاله أليهو أحد أصدقاء أيوب موضحاً هذه الحقيقة فقال "أخطأت وعوجبت المستقيم ولم أجاز عليه. فدي نفسي من العبور إلى الحفرة فتري حياتي النور" (اي ٢٨، ٣٣: ٢٧).

قصة تجديد فيلسوف:

سيظل تجديد أوغسطينوس من الحوادث البارزة في التاريخ، فقد كان شاباً خليعاً مستهتراً. ومع أن والدته كانت مسيحية بقى هو وثنيًا، وكان يجتهد في العثور على المبادئ التي باعتناقها ينتشع على أعمال الإثم والفجور. على أنه كان يتمتع بالرغم من هذا على امتيازين عظيمين: الأول.. أم تقية مصلية طالما سكبت دموعاً غزيرة أمام الرب لأجله. وكان يتمتع بامتياز آخر هو أصدقاء أفاضل انتهزوا كل فرصة ليشجعوه على التفكير الصالح وإلى إرجاعه عن غوايته. وبينما كان في صراعه مع قوات الشر وهو تارة يقوم وتارة يسقط، جاء إلى مدينة ميلان حيث كان يقود الكنيسة رجل صالح من أعلامها هو الأسقف أمبروز، وقد بلغت أزمة أوغسطينوس النفسية إلى أقصى مداها. ويقص هو قصته فيقول أنه كان جالساً مع صديق له ونفسه تضطرم بنيران المعركة الداخلية، معركة محاولة الإفلات من العادات القديمة ومن تكثير قيودها مع ترك كل الرفاق الأصدقاء وإقامة الحياة المسيحية التي يجب أن يحياها بفقرها ومتاعبها. قال: وبينما أنا أجلس مع صديقي وإذا التفكير يقودني إلى تكويم كل بؤس أمام نفسي، فثارت في داخلي عاصفة من الألم سببت أمطاراً غزيرة من الدموع. وترك صديقه حتى يمكنه أن يطلق لنفسه العنان في البكاء وهو في الوحدة. فجلس تحت شجرة التين في الحديقة، وهو يصرخ في مرارة روحه: "إلى متى؟ غداً؟ لماذا ليس الآن؟ لماذا لا توضع في هذه الساعة النهاية لنجاستي؟" قال: "كنت أتكلم هكذا وأبكي وأنا منكسر القلب، عندما سمعت من بيت مجاور صوت طفل يغني ويكرر كثيراً هذه العبارة: "خذ واقرأ! خذ واقرأ!" وحالاً تغير حالي وبدأت أفكر عما إذا كان الأطفال متعودين أن يلعبوا بإنشاء مثل هذه الكلمات. كما أنني لم أستطيع أن أذكر أنى سمعت شيئاً كهذا قط. فكففت دموعي وقمت متخذاً هذا الأمر من الله أن أفتح الكتاب وأقرأ أول إصحاح أجد. فرجعت بشوق إلى المكان الذي كنت جالساً فيه مع صديقي حيث كانت رسالة بولس الرسول إلى رومية، وكان قد بدأ يدرسها، فأمسكتها وفتحتها. وبسكوت قرأت الفصل الذي وقعت عليه عيناى: "لا بالمضاجع والعهر، لا بالخصام والحسد، بل بالبسوا الرب يسوع المسيح ولا تصنعوا تدبيراً

للجسد لأجل الشهوات" (رو ١٤، ١٣: ١٣). فلم أستطع أن أقرأ أكثر من ذلك ولم تكن لي حاجة إلى أكثر مما قرأت، لأنه في الحال عندما وصلت إلى هذه الجملة شع نور وضاح إلى داخل نفسي وإذ بكل ظلمات الشدة تنقشع! وهكذا تجدد أوغسطينوس فترك كل مسلك سيئ، وعمده الأسقف أمبروز وخرج من المعمودية وهما يرئمان معاً، وفرح قلب أمه وصار أوغسطينوس من أبر آباء الكنيسة وقد ترك بحياته وكتبه آثاراً طيبة بركة لكل الأجيال أكثر من أي رجل بعد عصر الرسل.

أرأيت إذن أن الله قد جاء لكي يبرر الفاجر، فهو لم يخلصنا لأننا أبرار بل ليجعلنا نحن الفجار أبراراً. هذا ما وضعه معلمنا بولس الرسول بقوله "متبررين مجاناً بنعمته بالفداء الذي بيسوع المسيح الذي قدمه الله كفارة بالإيمان بدمه لإظهار بره من أجل الصفح عن الخطايا السالفة بامهال الله. لإظهار بره في الزمان الحاضر ليكون باراً ويبرر من هو من الإيمان بيسوع" (رو ٣: ٢٤-٢٦).
إن حقيقة موت المسيح نيابة عن البشرية حقيقة قديمة، ولكنها تصبح اكتشافاً جديداً له وقعه عندما يخصص الإنسان هذا العمل له شخصياً. وما أفدح الخسارة التي تلحق بمن لا يخصص لنفسه هذا الخلاص. ومبدأ تخصيص الفداء للنفس قد وضعه معلمنا بولس الرسول إذ خصصه لنفسه شخصياً بقوله "أحبني وأسلم نفسه لأجلي" (غل ٢: ٢٠).

آه يا أخي ليتك تقبل يسوع مخلصاً شخصياً لك.

ثانياً:- دائرة الضعفاء

ربما تتباعد عن الله وتضطرب عظامك بسبب ضعفائك ظناً منك أن الله يبغض الضعفاء الذين أنت منهم، لأنك لا تستطيع أن تعيش بالقداسة، وكما تريد أن تتقدم في التقوى تجد نفسك هابطاً في لجة الخطية.. ولهذا تحسب نفسك أنك غير مستحق لنعمة الله!

ولكن اعلم يا أخي أن المسيح قد جاء من أجل الضعفاء أمثالي وأمثالك، إذ يقول الكتاب "لأن المسيح إذ كنا بعد ضعفاء مات في الوقت المعين لأجل الفجار" (رو ٥: ٦). فمن هذا نرى أن المسيح يرثي لضعفاتنا كما قال بولس الرسول "لأن ليس لنا رئيس كهنة غير قادر أن يرثي لضعفاتنا بل مجرب في كل شيء مثلاً بلا خطية. فلنتقدم بثقة إلى عرش النعمة لكي ننال رحمة، ونجد نعمة، عوناً في حينه" (عب ١٦، ١٤: ١٥).

هذا عن سر مجيء المسيح، وهو سر مجيء الروح القدس أيضاً لكي يعيين ضعفاتنا، إذ يقول بولس الرسول "فأننا نعلم أن كل الخليقة نئن وتتمخض معاً إلى الآن وليس هذا فقط بل نحن الذين لنا باكورة الروح نحن أنفسنا أيضاً نئن في أنفسنا... وكذلك الروح أيضاً يعيين ضعفاتنا" (رو ٨: ٢٢-٢٦).

ويعلن لنا لوقا الرسول هذا السر في قول السيد المسيح لتلاميذه "لكنكم ستنالون قوة متى حل الروح القدس عليكم" (أع ١: ٨).

وقد وضع لنا بولس الرسول حكمة الله من اختياره للضعفاء، فمن جهة لكي تظهر نعمة الله وتكمل قوته فيهم. لأنه إن اختار قوماً أقياء فكيف تظهر قوة الله فيهم. لهذا قال الرب لبولس "تكفيك نعمتي لأن قوتي في الضعف تكمل" (كو ١٢: ٩). ومن جهة أخرى اختار الله الضعفاء ليخزي الأقوياء إذ قال الرسول "اختار الله الضعفاء العالم ليخزي الأقوياء" (١ كو ١: ٢٧). فلماذا تتباعد والرب لا يختار إلا الضعفاء لكي يتمجد فيهم؟!.

علاوة على ذلك فإن كان الرب يوصي الناس أن يسندوا الضعفاء بقوله على لسان بولس الرسول "اسندوا الضعفاء" (١٤: ٥). أفلا يسندهم هو بالأولي!! لهذا نراه يشجع الضعفاء قائلاً "ليقل الضعيف بطل أنا" (يو ٣٠: ١٠).

لقد أدرك بولس الرسول سر معاملة الله للضعفاء ولهذا نراه يفتخر بضعفاته إذ يقول "سأفتخر بأمر ضعفي" (٢ كو ١١: ٣٠). وأيضاً "لا أفتخر إلا بضعفاتي" (٢ كو ١٢: ٥). ثم يكشف لنا الستار عن سر هذا الافتخار فيقول "بكل سرور أفتخر بالحري في ضعفاتي لكي تحل على قوة المسيح.. لأنني حينما أنا ضعيف فحينئذ أنا قوي" (٢ كو ١٠: ٩)؟

فلماذا تتباعد يا أخي الضعيف عن الله؟ أقول لك إنك تتباعد لأنك تريد أن تأتي إلى الله كاملاً ظناً منك أنه لا يقبل الضعفاء والمساكين، وعندما تكتشف ضعفك ونقصك تظن أنه يبغضك ولن يقبلك!! اعلم يا عزيزي أنك تفهم الموضوع عكسياً!! فقد جاء المسيح من أجل الضعفاء والفجار "لأن المسيح إذ كنا بعد ضعفاء مات في الوقت المعين من لأجل الفجار" (رو ٥: ٦). تأمل في ذلك جيداً لتري أن الله مستعد أن يرحب بك رغم ضعفك. بل أن الله يريد الضعفاء ليعطيهم القوة فيتمجد فيهم.

اذكر يا أخي بطرس الرسول الذي كان ضعيفاً وأمام الجارية ينكر المسيح. (مت ٣٦: ٧٠). فهل رفضه المسيح أم أعطاه قوة حتى يقف أمام الرؤساء والمجامع ويتكلم بكلام المسيح بكل مجاهرة. (أع ٢: ١٤-٣٦). واذكر بولس الرسول الذي عانى كثيراً من ضعفاته أمام الخطية حتى صرخ صرخته الشهيرة "الإرادة حاضرة عندي وأما أن أفعل الحسنى فلست أجد... ويحي أنا الإنسان الشقي من ينقذني مكن جسد هذا الموت" (رو ٧: ١٨). هل رفضه الله ولم يقبله أم وشحه بالقوة حتى قال "أستطيع كل شئ في المسيح الذي يقويني" (ف ٤: ١٣). واذكر داود النبي الذي بسبب ضعفه سقط في أشنع الخطايا، فهل رفضه الله أم رفع عنه خطيته وعندما طلب منه القوة بقوله "بروح منتدبة (الروح القدس) أعضدني" (مز ٥١: ١٢). يستجيب له الرب حتى أننا نسمعه يقول "أحبك يارب يا قوتي" (مز ٥٩: ١٧). ولهذا نجد أشعياء النبي يقرر هذه الحقيقة بقوله "هو ذا الله خلاصي فاطمئن ولا أرتعب لأنه ياه يهوه قوتي وترنيمتي وقد صار لي خلاصاً" (أش ١: ٢).

وهنا يعترضنا سؤال: كيف نحصل على هذه القوة؟

ويرينا بولس الرسول الوسيلة التي بها نحصل على القوة بقوله "بسبب هذا أحنى ركبتي لدى أبي ربنا يسوع المسيح لكي يعطيكم بحسب غني مجده أن تتأيدوا بالقوة بروحه في الإنسان الباطن. ليحل المسيح بالإيمان في قلوبكم" (أف ٣: ١٤-١٧).

فليتك يا أخي تحني ركبتيك لكي تتأيد بقوة الروح في الداخل، ويحل المسيح بالإيمان في قلبك. اصرخ مع داود النبي قائلاً: "ارحمني يارب لأنني ضعيف" (مز ٦: ٢). ولا بد أن يستجيب الرب لأنه جاء من أجل الضعفاء ليعطيهم القوة.

وسائط النعمة

أولاً :- الإيمان
ثانياً :- الأسرار
ثالثاً :- الممارسات الروحية

وسائط النعمة

عرفنا مما سبق أن النعمة هي عطية مجانية معروضة على جميع الناس. ولكن ما يهمننا توضيحه هو كيف يحصل الإنسان على هذه النعمة. ومن قلوبنا نشكر الله الطيب لأنه إذ أعد لنا النعمة، وضع لنا وسائل الحصول عليها وهي:

الإيمان. الأسرار. الممارسات الروحية.

أولاً :- الإيمان

معلمنا بولس الرسول يقول "لأنكم بالنعمة مخلصون بالإيمان وذلك ليس منكم هو عطية الله. ليس من أعمال كيلا يفتخر أحد" (أف ٢: ٨). فيوضح أن الإيمان هو وسيلة نيل النعمة، لذلك نراه يقول "إذ قد تبررنا بالإيمان لنا سلام مع الله" (رو ٥: ١). فالتبرير الذي هو أول أعمال النعمة يحصل عليه الإنسان بالإيمان.

تشبيهه:

لقد شبه أحدهم النعمة والإيمان بتشبيه جميل إذ قال (يمكننا أن نشبه الإيمان بالماسورة، ونشبه النعمة بالنبع الفائض الذي تتدفق منه المياه داخل الماسورة وتروى بنى البشر العطاش. إنها مأساة كبرى حين تنكسر الماسورة. ينبغي أن تكون الماسورة سليمة حتى تتمكن من توصيل المياه. وهكذا الإيمان، ينبغي أن يكون صحيحاً ومتيناً، يتجه إلى الله مباشرة، ثم يرجع إلينا محملاً بمراحم الله من جهتنا. دعني أذكرك مرة أخرى أن الإيمان ليس إلا القناة أو الماسورة، ولا ينبغي أن تنتظر إليه طويلاً لدرجة أنك ترفع من شأنه أكثر من النعمة التي هي مصدر كل بركة إلهية. أحذر من أن تصنع من إيمانك مسيحاً، أو تنتظر لأيمانك وكأنه مصدر الخلاص. نحن نحصل على الحياة حينما ننظر إلى يسوع وليس بالنظر إلى إيماننا). فانظر يا أخي إلى يسوع بعين الأيمان والثقة في أنه المخلص الوحيد الذي يستطيع أن يخلصك من كل خطاياك وهو يسكب نعمته الخاصة في قلبك خلال هذه النظرة الواثقة في قوة شخصه.

تشبيه آخر:

لقد قصدت أن أضع أمامك هذه التشبيهات حتى تستطيع أن تدرك ما هو المقصود من الإيمان. تأمل إذن هذا التشبيه.

إذا ذهبت إلى شاطئ البحر فانك ستجد كثيراً من الحيوانات الرخوة مختبئة داخل الصخر. هذه الحيوانات الضعيفة إذا ديس بالقدم فأنها تتحطم، لكنها متى احتمت في الصخرة فلا توجد قوة تستطيع أن تصل إليها. ومع أنها لا تعرف شيئاً عن جغرافية الصخور، إلا أنها تعرف كيف تلتصق بالصخر وتحتمي فيه لأمنها وسلامها. إن حياتها هي في الاحتماء في الصخر والالتصاق به، وكذلك حياة الخاطئ هي في الالتصاق بيسوع المخلص. آلاف مؤلفة من شعب الله لا يزيد إيمانهم عن ذلك، عن كونهم يلتصقون بالمسيح بكل قلوبهم وأنفسهم، وفي ذلك الكفاية للسلام في الحاضر، وللأمان في الأبدية. فالمسيح لهم مخلص قوى مقتدر، صخر ثابت لا يتزعزع، وهم يلتصقون به لأن فيه حياتهم، وهذا الاحتماء يخلصهم. فليتك يا عزيزي تلتصق به وتحتمي فيه.

ثقة المريض في الطبيب:

عندما يثق المريض في أحد الأطباء وفي مهارته يذهب إليه ويلقى بنفسه بين يديه، ويكشف عن موطن المرض، فيجري الطبيب له العملية الجراحية ويستأصل المرض من جسمه. ويقوم المريض ليشكر الطبيب بعد أن يستفيق من البنج وقبل أن تظهر نتائج العملية. لأنه واثق أن العملية ناجحة لتقته في مهارة الطبيب.

هذا هو الإيمان المطلوب. فتأتى بهذه الثقة إلى يسوع طبيب الروح وتمثل بين يديه وتكشف له سر تعبك وخطيتك التي تشعبت في قلبك. وثق أن يسوع يستطيع أن يستأصل سرطان الخطية من قلبك. وتقوم في الحال وتشكره لأن العملية قد نجحت فعلاً لأنه الطبيب القادر على كل شئ والمحِب الذي يريد أن الجميع يخلصون وإلى معرفة الحق يقبلون. فبعد أن ترفع قلبك له ليخلصك من ضعفائك تقوم وتشكره لاستجابته الطلبة مستنداً على وعده الصادق "وكل ما تطلبونه في الصلاة مؤمنين تتألمونه (وفي الأصل اليوناني: قد نلتموه)" (مت ٢١: ٢٢).

الإيمان والإيحاء السيكلوجي:

ربما تقول يا أخي أن هذا ضرب من الإيحاء السيكلوجي. كيف أو من أنني شفيت وأنا لازلت مريضاً؟ وكيف أو من أنني قوى وأنا لا زلت ضعيفاً، اللهم إلا إذا كانت مجرد إيحاءات سيكلوجية!!

أخي لقد نجح الشيطان في اكتشاف هذا التعبير وتلقينه لعلماء النفس لكي يحطم مفهوم الإيمان. فحقيقة أن الإيحاء السيكلوجي يشبه الإيمان إلى حد كبير في أنه يريد أن يعطي الإنسان ما ليس فيه، فإن كان مريضاً يريد كل منهما أن يعطيه الشفاء، وإن كان ضعيفاً يريد كل منهما أن يعطيه قوة، وإن كان حزيناً يريد كل منهما أن يعطيه فرحاً.. الخ. ولكن الفرق بين الاثنين هو فرق جوهري.. فالإيحاء السيكلوجي يستند على لا شئ فهو مجرد تمنيات ورجاء ليس له ركيزة ولا سند. أما الإيمان فهو ثقة بالحصول على ما يرجوه الإنسان "الإيمان هو الثقة بما يرجى" (عب ١١: ١). وهو متأكد أنه قد نال ما يرجوه. فالإيمان له ركيزة قوية وسند قادر ألا وهو الله الأمين الطيب. فلا تخط يا مبارك بين الإيحاء السيكلوجي والإيمان اليقيني. فهل كان إيمان صاحب اليد اليابسة إيحاء سيكلوجياً عندما قال له رب المجد "مد يدك" (مر ٣: ١-٦). وآمن بأنها قد شفيت وعلى هذا اليقين "مدها فعادت سليمة كالأخرى" (مر ٣٠: ٦). ولاحظ يا أخي أن عودتها سليمة تم بعد مدها. لأنه وثق في الشفاء قبل أن يراه لأنه كان ينظر إلى يسوع الطبيب الشافي. وهذا الكلام ينطبق أيضاً على العشرة البرص. (لو ١٧: ١١-١٩). فالمسيح أمرهم أن يذهبوا إلى الكهنة قبل أن يشفوا، فانطلقوا على هذه الثقة أنهم قد نالوا الشفاء ويقول الكتاب "وفيما هم منطلقون طهروا" فهل كان انطلاقهم إيحاء سيكلوجياً. أم إيماناً يقينياً. الفرق بين الإيمان والإيحاء السيكلوجي أن الإيمان يركز على يسوع أما الإيحاء فيركز على لا شئ!!

هل تؤمن إذن أن يسوع مستعد أن يقبلك ويغفر كل خطاياك ويبررك، ويقدسك، ويمجذك؟!.

الرب يعطيك هذا الإيمان. لأن الإيمان هبة كما يوضح لنا بولس الرسول في قوله "لأنكم بالنعمة مخلصون بالإيمان، وذلك ليس منكم هو عطية الله" (أف ٢: ٨). وقد أكد هذه الحقيقة القديس أوغسطينوس بقوله "وخشية أن يفتخر أحد أن الإيمان عمل بشري مستقل عن النعمة، يوضح الرسول أن الإيمان هو أيضاً من عمل النعمة بقوله: "وذلك ليس منكم هو عطية الله" (أف ٢: ٨).

(N.P.F. 1st. Ser. Vol.V P.229)

اطلب يا أخي عطية الإيمان وسيُعطى لك.

الإيمان والأعمال:

إن الإيمان الخلاصي الذي به ينال المؤمن التبرير أمام الله، إذ يتخذ المسيح مخلصاً شخصياً له وبديلاً عنه في تحمل عقوبة الخطية، هذا الإيمان الحي الحيوي لابد وأن تظهر ثماره في حياة المؤمن حتى يتبرر أمام الناس ليتمجد الله فيه. فالأعمال ثمر الإيمان الحي (العامل بالمحبة). ويجدر بنا أن نوضح أن الأعمال لا تسبق الإيمان وإنما هي علامة الإيمان الحقيقي. ولهذا قال بولس الرسول لتيطس "أريد أن تقر هذه الأمور لكي يهتم الذين آمنوا بالله أن يمارسوا أعمالاً حسنة" (تي ٣: ٨).

فالإنسان الذي حل فيه المسيح بالإيمان "ليحل المسيح بالإيمان في قلوبكم" (أف ١٧: ١). أصبح خليفة جديدة ويسلك في الأعمال الصالحة التي أعدها الله له ليسلك فيها، كما قرر بولس الرسول قائلاً "لأننا نحن عمله مخلوقين في المسيح يسوع لأعمال صالحة قد سبق الله فأعدها لكي نسلك فيها" (أف ٢: ١٠).

فإنه الذي أعد هذه الأعمال الصالحة، هو نفسه الذي يقوم بتنفيذها في المؤمن كما وضح معلمنا بولس الرسول أيضاً "لأن الله هو العامل فيكم أن تريدوا وأن تعملوا من أجل المسرة" (فى ٢: ١٣).

هذا عن وسيلة الإيمان بإيجاز فالإيمان ليس ثمناً للخلاص ولكنه وسيلة للخلاص وثمر للخلاص.

ثانياً: - الأسرار

لقد وضح رب المجد أن الأسرار هي وسيلة من وسائل النعمة بقوله: "من آمن واعتمد خلص" (مر ١٦: ١٦). وبطرس الرسول أيضاً يظهر هذه الحقيقة بقوله "توبوا وليعتمد كل واحد منكم على اسم المسيح لغفران الخطايا فتقبلوا عطية الروح القدس" (أع ٢: ٣٨).

وهكذا نرى أهمية الأسرار كوسائل نعمة للخلاص. فإن تعريف الأسرار هو أنها "وسيلة بها ننال نعمة غير منظورة بواسطة مادة منظورة. {كتاب علم اللاهوت - للقمص ميخائيل مينا جزء ٢ ص ٣٠٦}

ونستطيع أن نوضح النعمة التي ننالها في هذه الأسرار.

١ - سر المعمودية والتوبة:

في هذين السرين ننال نعمة التبرير والتجديد. يتضح هذا من قول بطرس الرسول "توبوا وليعتمد كل واحد منكم على اسم المسيح لغفران الخطايا فتقبلوا عطية الروح القدس" (أع ٢: ٣٨).

(أ) المعمودية:

يقول عنها السيد المسيح "من آمن واعتمد خلص" (مر ١٦: ١٦).

(ب) التوبة:

يقول يوحنا الحبيب "إن اعترفنا بخطايانا فهو أمين وعادل حتى يغفر لنا خطايانا ويطهرنا من كل إثم" (يو ١: ٩).

٢ - سر الميرون والتناول:

في هذين السرين ننال نعمة التقديس بثباتنا في المسيح يسوع بالروح القدس الذي يقديسنا.

(أ) الميرون:

في هذا السر ننال سكنى الروح القدس فينا وهو يثبتنا في المسيح كما يقول بولس الرسول "الذي يثبتنا معكم في المسيح وقد مسحنا هو الله الذي ختمنا ومنحنا عربون الروح في قلوبنا" (٢ كو ١: ٢٢). ويقول يوحنا الحبيب "وبهذا نعرف أنه يثبت فينا من الروح الذي أعطانا" (١ يو ٣: ٢٤).

وبالرغم من أنك مسح بالميرون إلا أنك أحزنت الروح وأطفأته بعدم إضرامك لهذه الموهبة، ولهذا يوصينا الكتاب على لسان بولس الرسول قائلاً: "أذكرك أن تضرم موهبة الله التي فيك" (٢ تي ١: ٦).

(ب) تناول:

لقد وضح رب المجد فاعلية هذا السر بقوله "من يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت في وأنا فيه" (يو ٦: ٥٦).

ويوحنا الحبيب يوضح لنا القصد من هذا الثبات بقوله "من قال أنه ثابت فيه ينبغي أنه كما سلك ذاك هكذا يسلك هو أيضاً" (١يو ٢: ٦).
فهل يا أخي أنت سالك في المسيح يسوع ومتتبعاً خطواته. أم أنك تفصل بين التناول وبين السلوك.

كم أخشى يا أخي أن تكون ممارستنا للأسرار مجرد ممارسات طقسية دون الحياة بفاعليتها. فالأسرار تعطيني المسيح. فهل أخذت يسوع وتقابلت معه وتسلك فيه؟! أم أنك تمارس هذه الأسرار شكلياً؟.

لقد حذر قداسة البابا الأنبا شنودة من هذه الحال فقال: (وأنت يا أخي الحبيب حاذر أن تكون كالقبور المبيضة من الخارج تهتم بالعبادة والطقس والذبيحة والبخور تاركاً أثقل الناموس الحق والرحمة. (مت ٢٣: ٢٣). هذا ما كتبه في مجلة الكرازة تحت عنوان "شكليات العبادة" {مجلة الكرازة السنة الثانية العدد الخامس - الغلاف}.

هذه هي الوسيلة الثانية وهي الأسرار في إيجاز ولنا إليها عود فيما بعد.

ثالثاً:- الممارسات الروحية

ونقصد بها الصلاة والصوم والكلمة أي دراسة الكتاب المقدس. فهذه كلها ليست فرائض أو واجبات وإنما هي وسائل نحصل بها على نعمة الله المخلصة كما سنرى.

الصلاة:

بالصلاة ندخل إلى حضرة الله ونتقابل معه لنطلب منه كل ما نحتاج إليه فيعطيه لنا بنعمته. فقد وعدنا رب المجد قائلاً "كل ما تطلبونه في الصلاة مؤمنين تتألون" (مت ٢١: ٢٢).

ففي الصلاة نطلب الغفران كما علمنا المسيح في الصلاة الربانية "اغفر لنا ذنوبنا ... " (مت ٦: ١٢).

وبها نطلب الملء بالروح القدس ليقدرنا فقد سجل الروح القدس حالات ملء بالصلاة فقال "ولما صلوا تزعزع المكان وامتألوا من الروح القدس" (أع ٤: ٣١). وهذا طبعاً غير حادثة عماد التلاميذ بالروح القدس يوم الخمسين المذكورة في الإصحاح الثاني من سفر الأعمال.

ولهذا فقد وضعت الكنيسة للمؤمنين أن يصلوا يومياً في الأجيبة (كتاب الصلوات السبع) قائلين "أيها الملك السماوي المعزى روح الحق.. هلم تفضل وحل فينا وطهرنا من كل دنس..".

الصوم:

هو أيضاً وسيلة أوجد بها في حضرة الله وأنحني أمامه في خضوع وتذل ساكياً نفسي أمامه ليتحنن على ضعفى ويلبسنى قوة من الأعالي، أهزم بها إبليس وجنوده فقد قال الرب "إن هذا الجنس لا يخرج بشيء إلا بالصلاة والصوم" (مت ١٧: ٢١). وفي الصوم ينسكب الروح القدس ليوصلنا ويهبنا القوة في الخدمة كما حدث مع التلاميذ في البداية إذ يسجل كاتب سفر الأعمال ما يلي: وبينما هم يخدمون الرب ويصومون قال الروح القدس "افرزوا لي برنابا وشاول للعمل الذي دعوتهما إليه. فصاموا حينئذ وصلوا ووضعوا عليهما الأيدي ثم أطلقوهما" (أع ١٣، ٣: ٢).

الكلمة:

دراسة كلمة الله تدخلني توأ في حضرة الله لأنني في هذه الحالة اسمع لصوته مكتوباً فأكون على صلة مباشرة معه ... وفي هذه الصلة ينسكب الروح القدس. هذا ما حدث فعلاً إذ وقف بطرس الرسول ليتكلم بكلمة الله في بيت كرنيليوس فحل الروح القدس على الجميع كما يسجل سفر الأعمال قائلاً "فبينما بطرس يتكلم بهذه الأمور حل الروح القدس على جميع الذين كانوا يسمعون الكلمة" (أع ١٠: ٤٤). وهذا هو عين ما قرره بطرس الرسول نفسه إذ قال: "فلما ابتدأت أنكلم حل الروح القدس عليهم" (أع ١١: ١٥).

لهذا فنحن نقرأ كلمة الله لندخل في حضرته ونوجد على اتصال مباشر به لتسري نعمته فينا خلال كلمته المخلصة إذ قال عنها بولس الرسول "إنها قوة الله للخلاص" (رو ١: ١١). وعندما ودع أهل أفسس قال لهم: "والآن استودعكم يا اخوتي لله ولكلمة نعمته القادرة أن تبنيكم وتعطيكم ميراثاً مع جميع المقدسين" (أع ٢٠: ٣٢). هذا عن الممارسات الروحية كوسائل نعمة.

هذه يا أخي مجرد وسائل نعمة من خلالها أنقابل مع المخلص وأتعلق به وأثبت فيه وأتحد به. من خلالها أحصل عليه فيصير لي بره وقداسته. ومن خلالها يحل في بروح قدسه يقودني في موكب نصرته.

هذه هي رسالة وسائل النعمة، هي وسيلة لا غاية. أعبر بها لأصل لحبيبي ولكن ما أكثر الذين يقبلون الأوضاع فيتخذون من الوسيلة غاية، ويتعلقون بالطريق أكثر من تعلقهم بشخص الرب يسوع، الذي من أجل التقابل معه قد سلكت هذا الطريق، والذي يسير معي كصديق في هذا الطريق "عمانويل الذي تفسيره الله معنا" (مت ١: ٢٣).

لمثل هؤلاء الأخوة الذين تعلقوا بالطريق وتركوا الصديق أسوق كلمات قداسة الحبر الجليل البابا الأنبا شنوده الثالث في هذا الصدد، إذ كتب في مجلة الكرازة تحت عنوان (محبة الطريق) {مجلة الكرازة السنة الأولى – العدد العاشر ص ٦}. أنقلها لك بالنص لأهمية ما فيها وجمال ما تحتويه. قال: (لماذا أصلي؟ ولماذا أصوم؟ ولماذا أختلي؟ ولماذا أقرأ؟ .. هل لكي أصبح رجل صلاة؟ أو رجل صوم أو خلوة أو معرفة؟ هل أحب أن أكون عابداً؟ هل العبادة شهوة مستقلة في نفسي لها غرض خاص؟).

هل أريد أن تكبر نفسي، عن طريق النجاح والنبوغ في هذا الطريق؟. هل أنا مهتم بذاتي: ماذا أكون؟ وكيف أكون؟ ومتى أكون؟ وكيف أطور إلي أفضل؟.

هل أنا أحب الله ذاته، أم أحب الطريق الذي يوصل إليه؟. هل أنا مثلاً أحب الصلاة، أم أحب الله الذي أصلي إليه؟ إنني ألاحظ في نفسي أحياناً أخطاء كثيرة: عندما أكمل مزاميري أفرح: لا لأنني تحدثت مع الله وإنما لأنني راهب ناجح في القيام بقانونه وواجبه في العبادة!!، وعندما لا أستطيع أن أصلي مزاميري جميعها، أحزن: لا لأنني فقدت متعة التحدث مع الله، وإنما لأنني راهب فاشل!!.. وهكذا أيضاً في صومي، وفي سهري، وفي قراءاتي!!.. المسألة إذن شخصية بحتة. هي أنانية واضحة: أريد فيها أن أكبر في عيني نفسي على حساب صلتني بالله!!.

متى يأتي الوقت الذي لا أصلي فيه زموراً واحداً، ومع ذلك أكون سعيداً لأنني على الرغم من ذلك كنت ثابتاً في الله عن طريق آخر من العبادة أو غير العبادة.

هل أنا أصلي من أجل لذة ومتعة الحديث معك، وحلاوة الوجود في حضرتك، أم من أجل أن أكتسب فضيلة أصل بها إلى الحياة الأخرى؟ أم أنني أصلي لكي أتحدث معك حديثاً أطلب فيه تلك الحياة؟. هل الصلاة في نظري هدف في ذاتها أم مجرد وسيلة؟.

إن كنت أثور على إنسان عطل خلوتي وصلاتي، ومن أجل الصلاة والخلوة أفقد سلامي الداخلي، وأفقد سلامي مع الناس، وبالتالي يتعكر قلبي وأفقد سلامي مع الله أيضاً، إذن فقد أصبحت الصلاة هدفاً لا وسيلة، وفي سبيل هذا الهدف قد انحرف وأخطئ!!..

إن العبادة هي مجرد طريق يوصل إلى الله، ولكن الهدف هو الله ذاته. والمحبة طريق، والخدمة طريق، ولكن واحد هو الهدف، أعني الله... لماذا إذن نفقد الله من أجل المحافظة على الطريق الذي يوصل إليه؟! ومن أجل أن يكون هذا الطريق في الوضع الذي تشتهييه؟!

فلنحب الطريق لا لأنه شهى في ذاته _ وحققاً هو شهى _، وإنما لأنه يقودنا إلى الله. ولنسرع في الطريق ونعبره بسرعة لنصل إليه. والكمال هو أن يكون طريقنا إلى الله ذاته.. هو الطريق). {مجلة الكرازة السنة الأولى العدد ١٠ ص ٦}.

هذا هو ما كتبه قداسة البابا الأنبا شنودة الثالث موضحاً الخطأ الكبير الذي نسقط فيه إن نحن حولنا أنظارنا عن يسوع إلى أي شئ آخر. يسوع يا أخي هو الطريق. (يو ١٤: ٦). وهو الصديق في الطريق. (أم ١٨: ٢٤). وهو الباب. (يو ١٠: ٩). وهو راعي الخراف. (يو ١٠: ١١). وهو الكل في الكل. (١كو ١٥: ٢٨).

ليت الرب يسكب من نعمته علينا لنزداد في كل عمل صالح. اسلك يا أخي مع المسيح بالإيمان خلال الأسرار والممارسات الروحية، فستجد في يسوع شبع نفسك وراحتها فهو الذي قيل عنه "طوبى لأناس عزهم بك. طريق بيتك في قلوبهم. عابرين وادي البكاء يصيرونه ينبوعاً. أيضاً ببركات يغطون مورة. يذهبون من قوة إلى قوة. يرون قدام الله في صهيون" (مز ٨٤: ٥-٧).

ختاماً

"إلى هنا أعاننا الرب" وقدم لنا هذه الصفحات التي أرجو بنعمته أن تكون مباركة من يده الكريمة لتروي النفس العطشانة وتُشبع القلب الجائع فإن وعده الأمين يدوم إلى الأبد "طوبى للجياع والعطاش إلى البر لأنهم يشبعون" (مت ٥: ٧).

ولنا أيها القارئ العزيز لقاء قريب في الكتاب الثاني إن أحب الرب وعشنا، وهو بعنوان "تمموا خلاصكم". الرب معك. صل لأجل ضعفي،

المؤلف